محمود درويش

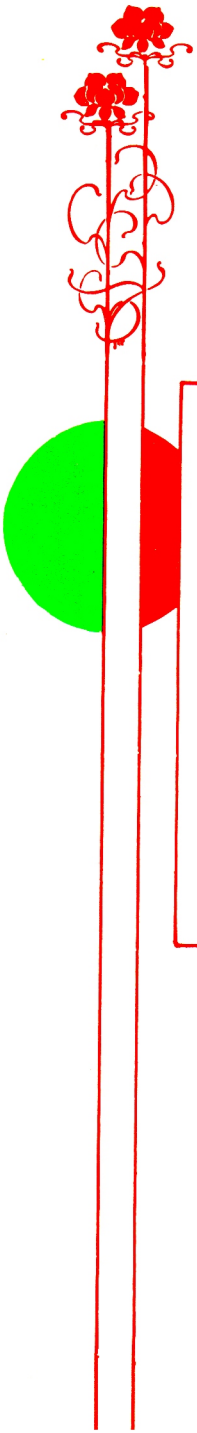

أحد عشر كوكبًا

الطبعة الرابعة

دار العودة - بيروت

أحد عشر كوكباً

محمود درويش

أحد عشر كوكباً

(١٩٩٢)

دار العودة - بيروت

حقوق الطبع محفوظة

لدار العودة

١٩٩٣/١٠/١

الطبعة الرابعة

يطلب من دار العودة - بيروت

كورنيش المزرعة - بناية ريفييرا سنتر

تلفون: ٣١٨١٦٥ - ٨١٥٣٣٥

ص. ب: ١٤٦٢٨٤ / برقياً: العودة

أحد عشر كوكباً
على آخر المشهد الأندلسي

I

في ٱلْمَساءِ الأَخير
على هذهِ الأَرْض

في ٱلْمَساءِ الأَخيرِ على هذهِ الأَرْضِ نَقْطَعُ أَيَّامَنا
عَنْ شُجَيْراتِنا، ونَعُدُّ ٱلضُلوعَ ٱلَّتي سَوْفَ نَحْمِلُها مَعَنا
وَالضُّلوعَ ٱلَّتي سَوْفَ نَتْرُكُها، هٰهُنا . . . في ٱلْمَساءِ ٱلأَخيرْ
لا نُوَدِّعُ شَيْئاً، ولا نَجِدُ ٱلْوَقْتَ كَيْ نَنْتَهي . . .
كُلُّ شَيْءٍ يَظَلُّ على حالِهِ، فَالْمَكانُ يُبَدِّلُ أَحْلامَنا
وَيُبَدِّلُ زُوّارَه. فَجْأَةً لَمْ نَعُدْ قادِرينَ على السُّخْرِيَة
فالْمَكانُ مُعَدٌّ لِكَيْ يَسْتَضيفَ ٱلْهَباءَ . . . هُنا فِي ٱلْمَساءِ الأَخيرْ
نَتَمَلّى ٱلْجِبالَ ٱلمُحيطَةَ بِالْغَيْمِ : فَتْحٌ . . وَفَتْحٌ مُضادّ

وَزَمانٌ قَديمٌ يُسَلِّمُ هذا ٱلزّمانَ ٱلْجَديدَ مَفاتيحَ أَبْوابِنا
فَٱدْخلوا، أَيُّها ٱلْفاتِحونَ، مَنازِلَنا وٱشْرَبوا خَمْرَنا
مِنْ مُوَشَّحِنا ٱلسَّهْلِ . فَٱللَّيْلُ نَحْنُ إذا ٱنْتَصَفَ ٱللَّيْلُ، لا
فَجْرَ يَحْمِلُهُ فارِسٌ قادِمٌ مِنْ نَواحي ٱلأَذانِ ٱلأَخيرْ. . .
شايُنا أَخْضَرٌ ساخِنٌ فَٱشْرَبوهُ، وَفُسْتُقُنا طازَجٌ فَكُلوه
وَٱلأَسِرَّةُ خَضْراءُ مِنْ خَشَبِ ٱلأَرْزِ، فَٱسْتَسْلِموا لِلنُّعاسْ
بَعْدَ هذا ٱلْحِصارِ ٱلطَّويلِ ، وَنامُوا على ريشِ أَحْلامِنا
المُلاءاتُ جاهِزَةٌ، وَٱلْعُطورُ على ٱلْبابِ جاهِزَةٌ، وَٱلمرايا كَثيرَة
فَٱدْخُلوها لِنَخْرُجَ مِنْها تَماماً، وَعَمّا قَليلٍ سَنَبْحَثُ عَمّا
كانَ تاريخَنا حَوْلَ تاريخِكُمْ في ٱلْبِلادِ ٱلْبَعيدَة
وَسَنَسْأَلُ أَنْفُسَنا فِي ٱلنِّهايَة: هَلْ كانَتِ ٱلأَنْدَلُسْ
هٰهُنا أَمْ هناكَ ؟ على ٱلأَرْضِ . . . أَمْ في ٱلْقَصيدَة ؟

II

كَيْفَ أَكْتُبُ
فَوْقَ ٱلسَّحاب ؟

كَيْفَ أَكْتُبُ فَوْقَ ٱلسَّحابِ وَصِيَّةَ أَهْلي ؟ وَأَهْلي
يَتْرُكونَ ٱلزَّمانَ كَما يَتْرُكونَ مَعاطِفَهُمْ في ٱلْبُيوتِ، وَأَهْلي
كُلَّما شَيَّدوا قَلْعَةً هَدَموها لِكَيْ يَرْفَعوا فَوْقَها
خَيْمَةً لِلْحَنينِ إِلى أَوَّلِ ٱلنَّخْل. أَهْلي يَخُونونَ أَهْلي
في حُروبِ ٱلدِّفاعِ عَنِ ٱلْمِلْح. لٰكِنَّ غَرْناطَةً مِنْ ذَهَب
مِنْ حَريرِ ٱلْكَلامِ ٱلْمُطَرَّزِ بِاللَّوْزِ، مِنْ فِضَّةِ ٱلدَّمْعِ في
وَتَرِ ٱلْعود. غَرْناطَةٌ لِلصُّعودِ ٱلْكَبيرِ إِلى ذاتِها. . .
وَلَها أَنْ تَكونَ كَما تَبْتَغي أَنْ تَكونَ: ٱلْحَنينَ إِلى

أَيِّ شَيْءٍ مَضى أَوْ سَيَمْضي : يَحُكُّ جَناحُ سُنونَوَّةٍ
نهْدَ آمْرأَةٍ في آلسَّريرِ، فَتَصْرُخُ : غَرْناطَةٌ جَسَدي
وَيُضَيِّعُ شَخْصٌ غَزالَتَهُ في آلْبَراري ، فَيَصْرُخُ : غَرْناطَةٌ بَلَدي
وَأَنا مِنْ هُناكَ ، فَغَنّي لِتَبْني آلْحَساسينُ مِنْ أَضْلُعي
دَرَجاً لِلسَّماءِ آلْقَريبَةِ . غَنّي فُروسِيَّةَ الصّاعِدينَ إلى حَتْفِهِمْ
قَمَراً قَمَراً في زُقاقِ آلْعشيقَةِ . غَنّي طُيورَ آلْحَديقَة
حَجَراً حَجَراً . كَمْ أُحِبُّكِ أَنْتِ آلَّتي قَطَّعْتِني
وَتَراً وَتَراً في آلطَّريقِ إلى لَيْلِها آلحارِّ، غنّي
لا صَباحَ لِرائِحةِ آلْبُنِّ بَعْدَكِ، غَنّي رَحيلي
عَنْ هَديلِ آلْيَمامِ على رُكْبَتَيْكِ وَعَنْ عُشِّ روحي
فِي حُروفِ آسْمِكِ آلسَّهْلِ ، غَرْناطَةٌ لِلْغِناءِ فَغَنّي !

III

لي خَلْفَ ٱلسَّماءِ

سَماء . . .

لِيَ خَلْفَ ٱلسَّماءِ سَماءٌ لأَرْجِعَ، لكِنَّني
لاَ أَزالُ أُلَمِّعُ مَعْدِنَ هٰذا ٱلْمَكانِ، وَأَحْيا
ساعَةً تُبْصِرُ ٱلْغَيْبَ. أَعْرِفُ أَنَّ ٱلزَّمانْ
لا يُحالِفُني مَرَّتَيْنِ، وَأَعْرِفُ أَنّي سأَخْرُجُ مِنْ
رايَتي طائِراً لا يَحُطُّ على شَجَرٍ في ٱلْحَديقَةْ
سَوْفَ أَخْرُجُ مِنْ كُلِّ جِلْدي، وَمِنْ لُغَتي
سَوْفَ يَهْبِطُ بَعْضُ الْكَلامِ عَنِ ٱلْحُبِّ في
شِعْرِ لوركا ٱلَّذي سَوْفَ يَسْكُنُ غُرْفَةَ نَوْمي

وَيَرى ما رأَيْتُ مِنَ ٱلْقَمرِ ٱلْبَدَوِيِّ. سَأَخْرُجُ مِنْ
شَجَرِ ٱللَّوْزِ قُطْناً على زَبَدِ ٱلْبَحْرِ. مَرَّ ٱلْغَريبْ
حامِلاً سَبْعَمائَةِ عامٍ مِنَ ٱلْخَيْل. مَرَّ ٱلْغَريبْ
هٰهُنا، كَيْ يَمُرَّ ٱلْغَريبُ هناكَ. سَأَخْرُجُ بَعْدَ قَليل
مِنْ تَجاعيدِ وَقْتي غَريباً عَنِ ٱلشَّامِ وَٱلأَنْدَلُسْ
هٰذهِ ٱلأَرْضُ لَيْسَتْ سَمائي، ولٰكِنَّ هٰذا ٱلْمَساءَ مَسائي
وَٱلْمفاتيحَ لي، وَٱلْمآذِنَ لي، وَٱلْمَصابِيحَ لي، وَأَنا
لِيَ أَيْضاً. أَنا آدَمُ الْجَنَّتَيْن، فَقَدْتُهُما مَرَّتَيْنْ.
فَٱطْرُدوني على مَهَلٍ،
وَٱقْتُلوني على عَجَلٍ،
تَحْتَ زَيْتونَتي،
مَعَ لوركا..

IV

أَنا واحِدٌ
مِنْ مُلوكِ ٱلنِّهايَة

. . . وأَنا واحِدٌ مِنْ مُلوكِ ٱلنِّهايَة . . . أَقْفِزُ عَنْ
فَرَسي في الشِّتاءِ ٱلأَخيرِ، أَنا زَفْرَةُ ٱلْعَرَبيِّ ٱلأَخيرَةْ
لاَ أُطِلُّ على ٱلآسِ فَوْقَ سُطوحِ ٱلْبُيوتِ، ولا
أَتَطَلَّعُ حَوْلي لِئَلاّ يَراني هُنا أَحَدٌ كانَ يَعْرِفُني
كانَ يَعْرِفُ أَنّي صَقَلْتُ رُخامَ ٱلْكَلامِ لِتَعْبُرَ ٱمْرأَتي
بُقَعَ ٱلضَّوْءِ حافِيَةً، لا أُطِلُّ عَلى ٱللَّيْلِ كَيْ
لا أَرى قَمَراً كانَ يُشْعِلُ أَسْرارَ غَرْناطَةٍ كُلَّها
جَسَداً جَسَداً. لا أُطِلُّ على الظِّلِّ كَيْ لا أَرى

أَحداً يَحْمِلُ آسْمي وَيَرْكُضُ خَلْفي : خُذِ آسْمَكَ عَنّي
وَآعْطِني فِضَّةَ آلْحَوْرِ. لا أَتلَفَّتُ خَلْفي لِئَلاّ
أَتَذَكَّرَ أَنّي مَرَرْتُ على آلأَرْضِ ، لا أَرْضَ في
هذهِ الأَرْضِ مُنْذُ تَكَسَّرَ حَوْلي آلزَّمانُ شَظايا شَظايا
لَمْ أَكُنْ عاشِقاً كَيْ أُصَدِّقَ أَنَّ آلْمِياهَ مَرايا،
مِثْلَما قُلْتُ لِلأَصْدِقاءِ آلْقُدامى ، ولا حُبَّ يَشْفَعُ لي
مُذْ قَبِلْتُ «مُعاهَدَةَ التيه» لَمْ يَبْقَ لي حاضِرٌ
كَيْ أَمُرَّ غَداً قُرْبَ أَمْسي. سَتَرْفَعُ قَشْتالَةُ
تاجَها فَوْقَ مِئْذَنَةِ آللَّهِ. أَسْمَعُ خَشْخَشَةً لِلْمَفاتيحِ في
بابِ تاريخنا آلذَّهَبيِّ ، وَداعاً لِتاريخنا، هَلْ أَنا
مَنْ سَيُغْلِقُ باب السَّماءِ الأَخيرَ ؟ أَنا زَفْرَةُ آلْعَرَبيِّ الأَخيرَةْ

V

ذاتَ يومٍ ، سأجلِسُ
فَوْقَ ٱلرَّصيف

ذاتَ يَوْمٍ سأَجْلِسُ فَوْقَ ٱلرَّصيفِ . . . رَصيفِ الْغَريبَة
لَمْ أَكُنْ نَرْجِساً، بَيْدَ أَنّي أُدافِعُ عَنْ صُورَتي
في ٱلْمَرايا. أَما كُنْتَ يَوْماً، هُنا، يا غَريبْ ؟
خَمْسُمائَةِ عامٍ مَضى وَٱنْقَضى، وَٱلْقَطيعَةُ لَمْ تَكْتَمِلْ
بَيْنَنا، هٰهُنا، وٱلرَّسائِلُ لَمْ تَنْقَطِعْ بَيْنَنا، وَٱلْحُروبْ
لَمْ تُغَيِّرْ حَدائِقَ غَرْناطَتي. ذاتَ يَوْمٍ أَمُرُّ بِأَقْمارِها
وَأَحُكُّ بِلَيْمونَةٍ رَغْبَتي . . . عانِقيني لأُولَدَ ثانِيَةً
مِنْ رَوائِحِ شَمْسٍ وَنَهْرٍ على كَتِفَيْكِ، وَمِنْ قَدَمَيْنْ

تَخْمُشانِ ٱلْمَساءَ فَيَبْكي حَليباً لِلَيْلِ ٱلْقَصيدَةْ. . .
لَمْ أَكُنْ عابِراً في كَلامِ ٱلمُغَنّينَ. . . كُنْتُ كَلامَ
ٱلمُغَنّينَ، صُلْحَ أَثينا وَفارِسَ، شَرْقاً يُعانِقُ غَرْباً
في ٱلرَّحيلِ إلى جَوْهَرٍ واحِدٍ. عانِقيني لأُولَدَ ثانِيَةً
مِنْ سُيوفٍ دِمَشْقِيَّةٍ في الدَّكاكينِ. لَمْ يَبْقَ منّي
غَيْرُ دِرْعي الْقَديمَةِ، سَرْجِ حِصاني ٱلْمُذَهَّبِ. لَمْ يَبْقَ مِنّي
غَيْرُ مَخْطوطَةٍ لِابْنِ رُشْدٍ، وَطَوْقِ ٱلْحَمامَةِ، وٱلتَّرْجَمات. . .
كُنْتُ أَجْلِسُ فَوْقَ ٱلرَّصيفِ على ساحَةِ ٱلأُقْحُوانَة
وأَعُدُّ ٱلْحَماماتِ: واحِدَةً، اثْنَتَيْن، ثَلاثينَ. . . وَٱلْفَتَياتِ ٱللَّواتي
يتخاطَفْنَ ظِلَّ ٱلشُّجَيْراتِ فَوْقَ ٱلرُّخامِ، وَيَتْرُكْنَ لي
وَرَقَ ٱلْعُمْرِ، أَصْفَرَ. مَرَّ ٱلْخَريفُ عليَّ وَلَمْ أَنْتَبِهْ
مَرَّ كُلُّ ٱلْخَريفِ، وَتاريخُنا مَرَّ فَوْقَ الرَّصيفِ. . .

وَلَمْ أَنْتَبِهْ !

VI

لِلْحَقيقَةِ وَجْهانِ
وَالثَّلْجُ أَسْوَد

لِلْحَقيقَةِ وَجْهانِ، وَالثَّلْجُ أَسْوَدُ فَوْقَ مَدينَتِنا
لَمْ نَعُدْ قادِرينَ على ٱلْيَأْسِ أَكْثَرَ مِمّا يَئِسْنا،
وَٱلنِّهايَةُ تَمْشي إلى ٱلسّورِ واثِقَةً مِنْ خُطاها
فَوْقَ هذا ٱلْبَلاطِ ٱلْمُبَلَّلِ بِٱلدَّمْعِ، واثِقَةً مِنْ خُطاها
مَنْ سَيُنْزِلُ أَعْلامَنا : نَحْنُ، أَمْ هُمْ ؟ وَمَنْ
سَوْفَ يَتْلو عَلَيْنا «مُعاهَدَةَ اليأس»، يا مَلِكَ ٱلاحْتِضار ؟
كُلُّ شَيْءٍ مُعَدٌّ لَنا سَلَفاً، مَنْ سَيَنْزِعُ أَسْماءَنا
عَنْ هُوِيَّتِنا : أَنْتَ أَمْ هُمْ ؟ وَمَنْ سَوْفَ يَزْرَعُ فينا

خُطْبَةَ آلتّيهِ : «لَمْ نَسْتَطِعْ أَنْ نَفُكَّ آلْحِصار
فَلْنُسَلِّمْ مَفاتيحَ فِرْدَوْسِنا لرسولِ آلسَّلامِ ، وَنَنْجو. . .»
لِلْحَقيقَةِ وَجْهانِ، كانَ الشِّعارُ آلْمُقَدَّسُ سَيْفاً لَنا
وَعَلَيْنا، فَماذا فَعَلْتَ بقَلْعَتِنا قَبْلَ هذا آلنَّهار ؟
لَمْ تُقاتِلْ لأَنَّكَ تَخْشى آلشَّهادَةَ، لكِنَّ عَرْشَكَ نَعْشُكْ
فآحْمِلِ آلنَّعْشَ كَيْ تَحْفَظَ آلْعَرْشَ، يا مَلِكَ الانْتِظار
إِنَّ هٰذا الرحيلَ سَيَتْرُكُنا حُفْنَةً مِنْ غُبار. . .
مَنْ سَيَدْفِنُ أَيّامَنا بَعْدَنا: أَنْتَ. . . أَمْ هُمْ ؟ وَمَنْ
سَوْفَ يَرْفَعُ راياتِهِمْ فَوْقَ أَسْوارِنا : أَنْتَ. . . أَمْ
فارِسٌ يائِسٌ ؟ مَنْ يُعَلِّقُ أَجْراسَهُمْ فَوْقَ رِحْلَتِنا
أَنْتَ. . . أَمْ حارِسٌ بائِسٌ ؟ كُلُّ شَيْءٍ مُعَدٌّ لَنا
فَلِماذا تُطيلُ النهايةَ، يا مَلِكَ الاحْتِضارْ ؟

VII

مَنْ أَنا . . .
بَعْدَ لَيْلِ ٱلْغَريبَة ؟

مَن أَنا بعدَ ليلِ الغريبةِ ؟ أَنهضُ مِنْ حُلُمي
خائِفاً مِنْ غُموضِ ٱلنَّهارِ على مَرْمَرِ ٱلدّارِ، مِنْ
عَتْمةِ ٱلشَّمْسِ في ٱلْوَرْدِ، مِنْ ماءِ نافورَتي
خائِفاً مِن حَليبٍ على شَفَةِ ٱلتّينِ، مِنْ لُغَتي
خائِفاً، مِنْ هَواءٍ يُمَشِّطُ صَفْصافَةً خائِفاً، خائِفا
مِنْ وُضوحِ ٱلزَّمانِ ٱلْكَثيفِ، وَمِنْ حاضِرٍ لَمْ يَعُدْ
حاضِراً، خائِفاً مِنْ مُروري على عالَمٍ لَمْ يَعُدْ
عالَمي . أَيُّها ٱلْيَأْسُ كُنْ رَحْمَةً . أَيُّها ٱلْمَوْتُ كُنْ

نِعْمَةً لِلْغَريبِ ٱلَّذي يُبْصِرُ ٱلْغَيْبَ أَوْضَحَ مِنْ
واقِعٍ لَمْ يَعُدْ واقِعاً. سَوْفَ أَسْقُطُ مِنْ نَجْمَةٍ
فِي ٱلسَّماءِ إلى خَيْمةٍ فِي ٱلطَّريقِ إلى . . . أَيْن ؟
أَيْنَ ٱلطَّريقُ إلى أَيِّ شَيْءٍ ؟ أَرى ٱلْغَيْبَ أَوْضَحَ مِنْ
شارعٍ لَمْ يَعُدْ شارِعي. مَنْ أَنا بَعْدَ لَيْلِ ٱلْغَريبَةْ ؟
كُنْتُ أَمْشي إلى ٱلذّاتِ في ٱلآخَرينَ، وها أَنَذا
أَخْسَرُ ٱلذّاتَ وَٱلآخَرينَ. حِصاني على ساحِلِ ٱلأَطْلَسيِّ ٱخْتَفى
وَحِصاني على ساحِلِ ٱلْمُتَوَسِّطِ يُغْمِدُ رُمْحَ ٱلصَّليبِيِّ فيّ.
مَنْ أَنا بَعْدَ لَيْلِ ٱلْغَريبَةِ؟ لا أَسْتَطيعُ ٱلرُّجوعَ إلى
إِخْوَتي قُرْبَ نَخْلَةِ بَيْتي ٱلقَديم، ولا أَسْتَطيعُ ٱلنُّزولَ إلى
قاعِ هاوِيَتي. أَيُّها ٱلْغَيْبُ! لا قَلْبَ لِلْحُبِّ . . . لا
قَلْبَ لِلْحُبِّ أَسْكُنُهُ بَعْدَ لَيْلِ ٱلْغَريبَة . . .

VIII

كُنْ لِجيتارَتي وَتَراً
أَيُّها ٱلماء

كُنْ لِجيتارَتي وَتَراً أَيُّها ٱلْماءُ؛ قَدْ وَصَلَ ٱلْفاتِحون
وَمَضى ٱلْفاتِحونَ ٱلْقُدامى. مِنَ ٱلصَّعْبِ أَنْ أَتَذَكَّرَ وَجْهي
في ٱلْمَرايا. فَكُنْ أَنْتَ ذاكِرَتي كَيْ أَرى ما فَقَدْت...
مَنْ أَنا بَعْدَ هذا ٱلرَّحيلِ ٱلْجَماعِيِّ ؟ لي صَخْرَةٌ
تَحْمِلُ ٱسْمِيَ فَوْقَ هِضابٍ تُطِلُّ على ما مَضى
وَٱنْقَضى... سَبْعُمائَةِ عامٍ تُشَيِّعُني خَلْفَ سُورِ ٱلمَدينَة...
عَبَثاً يَسْتَديرُ ٱلزَّمانُ لأُنْقِذَ ماضِيَّ مِنْ بُرْهَةٍ
تَلِدُ ٱلآنَ تاريخَ مَنْفايَ فِيَّ... وَفي ٱلآخَرين...

كُنْ لِجيتارَتي وَتَراً أَيُّها ٱلْماءُ، قَدْ وَصَلَ ٱلْفاتِحون
وَمَضى ٱلْفاتِحونَ ٱلْقُدامى جَنوباً شُعوباً تُرَمِّمُ أَيّامَها
في رُكامِ ٱلتَّحَوُّلِ: أَعْرِفُ مَنْ كُنْتُ أَمْسِ، فَماذا أَكُونْ
في غَدٍ تَحْتَ رَاياتِ كولومبوسَ ٱلأَطْلَسِيَّةِ ؟ كُنْ وَتَراً
كُنْ لِجيتارَتي وَتَراً أَيُّها ٱلْماءُ. لا مِصْرَ في مِصْرَ، لا
فاسَ في فاسَ، وَالشّامُ تَنْأَى. ولا صَقْرَ في
رايَةِ ٱلأَهْلِ، لا نَهْرَ شَرْقَ ٱلنَّخيلِ ٱلْمُحاصَرْ
بِخُيولِ ٱلْمَغولِ ٱلسَّريعَةِ. في أَيِّ أَنْدَلُسٍ أَنْتَهي ؟ هٰهُنا
أَمْ هُناكَ ؟ سأَعْرِف أَنّي هَلَكْتُ وأَنّي تَرَكْتُ هُنا
خَيْرَ ما فِيَّ: ماضِيَّ. لَمْ يَبْقَ لي غَيْرُ جيتارتي
كُنْ لِجيتارَتي وَتَراً أَيُّها ٱلْماءُ. قَدْ ذَهَبَ ٱلْفاتِحون
وَأَتى ٱلْفاتِحون. . .

IX

في الرَّحيلِ ٱلْكَبيرِ
أُحِبُّكِ أَكْثَر . . .

في ٱلرَّحيلِ ٱلْكَبيرِ أُحِبُّكِ أَكْثَرَ، عَمّا قَليلْ
تُقْفِلينَ ٱلْمَدينَةَ. لا قَلْبَ لي في يَدَيْكِ، ولا
دَرْبَ يَحْمِلُني، في ٱلرَّحيلِ ٱلْكَبيرِ أُحِبُّكِ أَكْثَرْ
لا حَليبَ لِرُمّانِ شُرْفَتِنا بَعْدَ صَدْرِكِ. خَفَّ ٱلنَّخيلْ
خَفَّ وَزْنُ ٱلتِّلالِ، وَخَفَّتْ شَوارِعُنا في ٱلأَصيلْ
خَفَّتِ الأَرْضُ إِذْ وَدَّعَتْ أَرْضَها. خَفَّتِ ٱلْكَلِمات
وَالْحِكاياتُ خفَّتْ على دَرَجِ ٱللَّيْلِ. لكِنَّ قَلْبي ثَقيلْ
فَاتْرُكيهِ هُنا حَوْلَ بَيْتِكِ يَعْوي وَيَبْكي ٱلزَّمانَ ٱلْجَميلْ،

لَيْسَ لي وَطَنٌ غَيْرُهُ، في ٱلرَّحيلِ أُحِبُّكِ أَكْثَرْ
أُفْرِغُ ٱلرّوحَ مِنْ آخِرِ ٱلْكلِماتِ: أُحِبُّكِ أَكْثَر
في ٱلرَّحيلِ تَقودُ ٱلْفَراشاتُ أَرْواحَنا، في ٱلرَّحيلْ
نَتَذَكَّرُ زِرَّ ٱلْقَميصِ ٱلَّذي ضاعَ مِنّا، وَنَنْسى
تاجَ أَيّامِنا، نَتَذَكَّرُ رائِحَةَ الْعَرَقِ الْمِشْمِشِيِّ، وَنَنْسى
رَقْصَةَ ٱلْخَيْلِ في لَيْلِ أَعْراسِنا، في ٱلرَّحيلْ
نَتَساوى مَعَ ٱلطَّيْرِ، نَرْحَمُ أَيّامَنا، نَكْتَفي بِٱلْقَليلْ
أَكْتَفي مِنْكِ بِالْخَنْجَرِ ٱلذَّهَبِيِّ يُرَقِّصُ قَلْبي ٱلْقَتيلْ
فَٱقْتُليني، على مَهَلٍ، كَيْ أَقولَ: أُحِبُّكِ أَكْثَرَ مِمّا
قُلْتُ قَبْلَ الرَّحيلِ ٱلْكَبيرِ. أُحِبُّكِ. لا شَيْءَ يوجِعني
لا ٱلْهَواءُ، ولا ٱلْماءُ... لا حَبَقٌ فِي صَباحِكِ، لا
زَنْبَقٌ في مَسائِكِ يوجِعُني بَعْدَ هذا ٱلرَّحيلْ...

X

لا أُريدُ مِنَ الْحُبِّ
غَيْرَ ٱلْبِدايَة

لا أُريدُ مِنَ ٱلْحُبِّ غَيْرَ ٱلْبِدايَةِ، يَرْفو ٱلْحَمامُ
فَوْقَ ساحاتِ غَرْناطَتي ثَوْبَ هذا ٱلنَّهار
في ٱلْجِرارِ كَثيرٌ مِنَ ٱلْخَمْرِ لِلْعيدِ مِنْ بَعْدِنا
في الأَغاني نَوافِذُ تَكْفي وَتَكْفي لِيَنْفَجِرَ الْجُلَّنار

أَتْرُكُ ٱلْفُلَّ في الْمَزهَرِيَّةِ، أَتْرُكُ قَلْبي ٱلصَّغير
في خِزانَةِ أُمِّيَ، أَتْرُكُ حُلْمِيَ في ٱلْماءِ يَضْحَك
أَتْرُكُ ٱلْفَجْرَ في عَسَلِ ٱلتّينِ، أَتْرُكُ يَوْمي وأَمْسي
في ٱلْمَمَرِّ إلى ساحَةِ ٱلْبُرْتُقالَةِ حَيْثُ يَطيرُ ٱلْحَمامُ

هَلْ أنا مَنْ نَزَلْتُ إلى قَدَمَيْكِ، لِيَعْلُوَ ٱلْكَلامُ
قَمَراً في حَليبِ لَياليكِ أَبْيَضَ. . . دُقّي ٱلْهَواء
كَيْ أرى شارعَ النّايِ أَزْرَقَ. . . دُقّي ٱلْمَساء
كَيْ أرى كَيْفَ يَمْرَضُ بَيْني وَبَيْنَكِ هٰذا ٱلرُّخامُ.

الشَّبابيكُ خالِيَةٌ مِنْ بَساتينِ شالِكِ. في زَمَنٍ
آخَرٍ كُنْتُ أَعْرِفُ عَنْكِ ٱلْكَثيرَ، وَأَقْطُفُ غارديني
مِنْ أَصابِعِكِ ٱلْعَشْرِ. في زَمَنٍ آخَرٍ كانَ لي لُؤْلُؤٌ
حَوْلَ جيدِكِ، وَٱسْمٌ على خاتمٍ شَعَّ مِنْهُ ٱلظَّلامُ

لا أُريدُ مِنَ ٱلْحُبِّ غَيْرَ ٱلْبِدايَةِ، طارَ ٱلْحَمامُ
فَوْقَ سَقْفِ ٱلسَّماءِ ٱلأَخيرَةِ، طارَ ٱلْحَمامُ وَطار
سَوْفَ يَبْقى كثيرٌ مِنَ الخَمْرِ، من بَعْدِنا، في ٱلْجِرار
وَقَليلٌ مِنْ الأَرْضِ يَكْفي لِكَيْ نَلْتَقي، وَيَحُلَّ ٱلسَّلامُ.

XI

الكَمَنجات

الكَمَنجاتُ تَبْكي مَعَ الْغَجَرِ الذَّاهِبينَ إلى ٱلأَنْدَلُسْ
الكَمَنجاتُ تَبْكي على ٱلْعَرَبِ ٱلْخارِجينَ مِنَ ٱلأَنْدَلُسْ

الكَمَنجاتُ تَبْكي على زَمَنٍ ضائِعٍ لا يَعودْ
الكَمَنجاتُ تَبْكي على وَطَنٍ ضائِعٍ قَدْ يَعودْ

الكَمَنجاتُ تُحْرِقُ غاباتِ ذاكَ الظَّلامِ ٱلْبَعيدِ ٱلْبَعيدْ
الكَمَنجاتُ تُدْمي ٱلْمُدى، وَتَشُمُّ دَمي في ٱلْوريدْ.

الكَمَنجاتُ تَبْكي مَعَ الْغَجَرِ الذَّاهِبينَ إلى ٱلأَنْدَلُسْ
الكَمَنجاتُ تَبْكي على ٱلْعَرَبِ ٱلْخارِجينَ مِنَ ٱلأَنْدَلُسْ

الكَمَنجاتُ خَيْلٌ على وَتَرٍ مِنْ سَرابٍ، وَماءٍ يَئِنُّ
الكَمَنجاتُ حَقْلٌ مِنَ اللَّيْلَكِ ٱلْمُتَوَحِّشِ يَنْأَى وَيَدْنو

الكَمَنجاتُ وَحْشٌ يُعَذِّبُهُ ظُفْرُ إمْرأةٍ مَسَّهُ، وَٱبْتَعَدْ
الكَمَنجاتُ جَيْشٌ يُعَمِّرُ مَقْبَرَةً مَنْ رُخامٍ وَمِنْ نَهَوَنْدْ

الكَمَنجاتُ فَوْضى قُلوبٍ تُجَنِّنُها ٱلرِّيحُ في قَدَمِ الرَّاقِصَةْ
الكَمَنجاتُ أَسْرابُ طَيْرٍ تَفِرُّ مِنَ الرَّايَةِ النَّاقِصَةْ

الكَمَنجاتُ شَكْوى ٱلْحَريرِ ٱلْمُجَعَّدِ في لَيْلَةِ ٱلْعاشِقَةْ
الكَمَنجاتُ صَوْتُ ٱلنَّبيذِ ٱلْبَعيدِ على رَغْبَةٍ سابِقَةْ

الكَمَنجاتُ تَتْبَعُني، هٰهُنا وَهناكَ، لِتَثْأَرَ مَنِّي
الكَمَنجاتُ تَبْحَثُ عَنِّي لِتَقْتُلَني، أَيْنَما وَجَدَتْني

الكَمَنجاتُ تَبْكي على ٱلْعَرَبِ ٱلْخارِجينَ مِنَ ٱلأَندلُسْ
الكَمَنجاتُ تَبْكي مَعَ ٱلْغَجَرِ الذَّاهِبينَ إلى ٱلأَنْدَلُسْ

خطبة «الهندي الأحمر»
- ما قبل الأخيرة -
أمام الرجل الأبيض

«هَلْ قُلْتُ مَوْتى ؟
لا مَوْتَ هناك
هناك فقط تبديلُ عوالم»

سياتل
زعيم دواميش

- ١

إذاً، نَحْنُ مَنْ نَحْنُ في ٱلمسيسِبّي. لَنا ما تَبَقَّى لَنا مِنَ الأَمْسِ /
لكِنَّ لَوْنَ ٱلسَّماءِ تَغَيَّرَ، وَٱلْبَحرَ شَرْقاً
تَغَيَّرَ، يا سَيِّدَ ٱلْبِيضِ ! يا سَيِّدَ ٱلخَيْلِ، ماذا تُريدُ
مِنَ ٱلذَّاهِبينَ إلى شَجَرِ ٱللَّيْل ؟/
عالِيَةٌ روحُنا، وَٱلْمَراعي مُقَدَّسَةٌ، وَٱلنّجومْ
كَلامٌ يُضيءُ... إذا أَنْتَ حَدَّقْتَ فيها قَرَأْتَ حِكايَتَنا كُلَّها:
وُلِدْنا هُنا بَيْنَ ماءٍ وَنارٍ... وَنولَدُ ثانِيَةً في ٱلْغُيومْ
على حافَّةِ ٱلسّاحِلِ ٱللّازَوَرْدِيِّ بَعْدَ ٱلْقِيامَةِ... عَمّا قَليلْ
فلا تَقْتُلِ ٱلْعُشْبَ أَكْثَرَ، لِلْعُشْبِ روحٌ يُدافِعُ فينا
عَنِ ٱلرّوحِ في الأَرْضِ /
يا سَيِّدَ ٱلْخَيْلِ ! عَلِّمْ حِصانَكَ أَنْ يَعْتَذِرْ
لِروحِ ٱلطَّبيعَةِ عَمَّا صَنَعْتَ بِأَشْجارِنا:

آهِ ! يا أُخْتِيَ ٱلشَّجَرةْ
لَقَدْ عَذَّبوكِ كَما عَذَّبُوني
فلا تَطْلُبي ٱلْمَغْفِرَةْ
لِحَطَّابِ أُمِّي وَأُمِّكْ. . . /

- ٢

. . . لَنْ يَفْهَمَ ٱلسَّيِّدُ الأَبْيَضُ ٱلْكَلِماتِ ٱلْعَتيقَةْ
هُنا، في ٱلنُّفوسِ ٱلطَّليقَةِ بَيْنَ ٱلسَّماءِ وَبَيْنَ ٱلشَّجَر. . .
فَمِنْ حَقِّ كولومبوسَ الْحُرِّ أَنْ يَجِدَ ٱلهِنْدَ في أَيِّ بَحْر،
وَمِنْ حَقِّهِ أَنْ يُسَمِّيَ أَشْباحَنا فُلْفُلاً أَوْ هُنودا،
وَفي وُسْعِهِ أَنْ يُكَسِّرَ بَوْصَلَةَ ٱلْبَحْرِ كَيْ تَسْتَقيمَ
وَأَخطاءَ ريحِ الشَّمالِ، وَلكِنَّهُ لا يُصَدِّقُ أَنَّ ٱلْبَشَر
سَواسِيَةٌ كالْهَواءِ وَكالَماءِ خارِجَ مَمْلَكَةِ ٱلْخارِطَة!
وَأَنَّهُمُ يولَدونَ كَما تولَدُ الناسُ في بَرْشَلونَة، لكِنَّهمْ يَعْبُدون
إِلٰهَ ٱلطَّبيعَةِ في كُلِّ شَيْءٍ. . . وَلا يَعْبُدونَ ٱلذَّهَبْ. . .
وَكولومبوسُ ٱلْحُرُّ يَبْحَثُ عَنْ لُغَةٍ لَمْ يَجِدْها هُنا،

وعَنْ ذَهَبٍ في جَماجِمِ أَجْدادِنا الطَّيِّبينَ وكان لَهُ
مَا يُرِيدُ مِنَ ٱلْحَيِّ وَٱلمَيْتِ فِينا. إذاً

لِماذا يُواصِلُ حَرْبَ الإبادَةِ، مِنْ قَبْرِهِ، لِلنِّهايَة؟
وَلَمْ يَبْقَ مِنَّا سِوى زِينَةٍ لِلْخَرابِ، وَريشٍ خَفيفٍ على

ثِيابِ ٱلْبُحَيْراتِ. سَبْعونَ مَلْيونَ قَلْبٍ فَقَأْتَ... سَيَكْفي
وَيَكْفي، لِتَرْجِعَ مِنْ مَوْتِنا مَلِكاً فَوْق عَرْشِ ٱلزمانِ ٱلْجَديد...

أَما آنَ أَنْ نَلْتَقِيَ، يا غَريبُ، غَريبَيْنِ في زَمَنٍ واحِدٍ ؟
وَفي بَلَدٍ واحِدٍ، مَثْلَما يَلْتَقي ٱلْغُرَباءُ على هاوِيَة ؟

لَنا ما لَنا... وَلَنا ما لَكُمْ مِنْ سَماء
لَكُمْ ما لَكُمْ... وَلَكُمْ ما لَنا مِنْ هَواءٍ وَماء

لَنا ما لَنا مِنْ حَصىً... وَلَكُمْ ما لَكُمْ مِنْ حَديد
تَعالَ لِنَقْتَسِمَ ٱلضَّوْءَ في قُوَّةِ ٱلظِّلِّ، خُذْ ما تُريد

مِنَ ٱللَّيْلِ، وَٱتْرُكْ لَنا نَجْمَتَيْنِ لِنَدْفِنَ أَمْواتنا في ٱلْفَلَكْ
وَخُذْ ما تُريدُ مِنَ ٱلْبَحْرِ، وَٱتْرُكْ لَنا مَوْجَتَيْنِ لِصَيْدِ ٱلسَّمَكْ

وَخُذْ ذَهَبَ الأَرْضِ والشَّمْسِ، وٱتْرُكْ لَنا أَرْضَ أَسْمائِنا

وَعُدْ، يا غَريبُ، إلى الأَهْلِ . . . وآبْحَثْ عَنِ آلْهِنْد /

٣ -

. . . أَسْماؤُنا شَجَرٌ مِنْ كَلامِ الإلٰهِ، وَطَيْرٌ تُحَلِّقُ أَعْلى
مِنَ آلْبُنْدُقِيَّةِ. لا تَقْطَعوا شَجَرَ الإسْمِ يا أَيُّها آلْقادِمون
مِنَ آلْبَحْرِ حَرْباً، وَلا تَنْفُثوا خَيْلَكُمْ لَهَباً في آلسُّهول
لَكُمْ رَبُّكُمْ ولَنَا رَبُّنا، وَلَكُمْ دينُكُمْ وَلَنَا دينُنا
فلا تَدْفِنوا آللَّهَ في كُتُبٍ وَعَدَتْكُمْ بأَرْضٍ على أَرْضِنا
كَما تَدَّعونَ، وَلا تَجْعَلوا رَبَّكُمْ حاجِباً في بَلاطِ آلْمَلِك !
خُذوا وَرْدَ أَحْلامِنا كَيْ تَرَوْا ما نَرى مِنْ فَرَحْ !
وَناموا على ظِلِّ صَفْصافِنا كَي تَطيروا يَماماً يَماما . . .
كَما طارَ أَسْلافُنا آلطيِّبونَ وَعادوا سَلاماً سَلاما.
سَتَنْقُصُكُمْ، أَيُّها آلْبِيضُ، ذِكْرى الرَّحيلِ عَنِ آلأَبْيَضِ آلْمُتَوَسِّط،
وَتَنْقُصُكُمْ عُزْلَةُ آلأَبَدِيَّةِ في غابَةٍ لا تُطِلُّ على آلْهاوِيَهْ
وَتَنْقُصُكُمْ حِكْمَةُ الانْكِساراتِ، تَنْقُصُكُمْ نَكْسَةٌ في آلْحُروب
وَتَنْقُصُكُمْ صَخْرَةٌ لا تُطيعُ تَدَفُّقَ نَهْرِ آلزَّمانِ آلسَّريع

سَتَنْقُصُكُمْ ساعَةً لِلتَّأَمُّلِ في أَيِّ شَيْءٍ، لِتُنْضِجَ فيكُمْ
سَماءً ضَرورِيَّةً لِلتُّرابِ، سَتَنْقُصُكُمْ ساعَةً لِلتَّرَدُّدِ ما بَيْنَ دَرْبٍ
وَدَرْبٍ، سَيَنْقُصُكُمْ يوربيدوسُ يَوْماً، وَأَشْعارُ كَنْعانَ وَٱلْبابِلِيِّينَ،
تَنقُصُكُمْ
أَغاني سُلَيْمانَ عَنْ شولَميتَ، سَيَنْقُصُكُمْ سَوْسَنٌ لِلْحَنين
سَتَنْقُصُكُمْ، أَيُّها ٱلبِيضُ، ذِكرى تُروِّضُ خَيْلَ ٱلْجُنون
وَقَلْبٌ يَحُكُّ الصُّخورَ لِتَصْقُلَهُ في نِداءِ الكَمَنْجاتِ. . . يَنْقُصُكُمْ
وَتَنْقُصُكُمْ حَيْرَةٌ لِلْمُسَدَّسِ : إِنْ كانَ لا بُدَّ مِنْ قَتْلِنا
فَلا تَقْتُلوا ٱلْكائِناتِ ٱلَّتي صادَقَتْنا، وَلا تَقْتُلوا أَمْسَنا
سَتَنْقُصُكُمْ هُدْنَةٌ مَعَ أَشْباحِنا في لَيالي ٱلشِّتاءِ ٱلْعَقيمَة
وَشَمْسٌ أَقَلُّ ٱشتعالاً، وبَدْرٌ أَقَلُّ آكتِمالاً، لِتَبْدُوَ ٱلْجَريمَة
أَقَلَّ ٱحْتِفالاً على شاشَةِ السِّينما، فَخُذوا وَقْتَكُمْ
لِكَي تَقْتُلوا ٱللَّه. . . /

- ٤

. . . نَعْرِفُ ماذا يُخَبِّي هذا ٱلْغُموضُ ٱلْبَليغُ لنا

سَماءٌ تَدلَّتْ على مِلْحِنا تُسْلِمُ ٱلرُّوحَ. صَفْصافَةٌ
تَسيرُ على قَدَمِ ٱلرِّيحِ، وَحْشٌ يُؤَسِّسُ مَملكةً في

ثُقوبِ ٱلْفَضاءِ الجَريحِ... وَبَحْرٌ يُمَلِّحُ أَخْشابَ أَبْوابِنا،
وَلَم تَكُنِ ٱلأَرْضُ أَثْقَلَ قَبْلَ ٱلخليقةِ، لكنَّ شيئاً
كهذا عَرَفْناهُ قَبْلَ الزَّمانِ... سَتَرْوي ٱلرِّياحُ لنا

بِدَايَتَنا وٱلنِّهايَةَ، لكِنَّنا نَنْزِفُ ٱليَوْمَ حاضِرَنا
وَنَدْفِنُ أَيَّامَنا في رَمادِ الأَساطيرِ، لَيْسَتْ أَثينا لنا،

وَنَعْرِفُ أَيَّامَكُمْ مِنْ دُخانِ ٱلْمَكانِ، وَلَيْسَتْ أَثينا لَكُمْ،
وَنَعْرِفُ ما هَيَّأَ ٱلْمَعْدِنُ ـ السَّيِّدُ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَجْلِنا

ومِنْ أَجْلِ آلِهَةٍ لَمْ تُدَافِعْ عَنِ ٱلْمِلْحِ في خُبْزِنا
وَنَعْرِفُ أَنَّ ٱلْحَقيقَةَ أَقْوى مِنَ ٱلْحَقِّ، نَعْرِفُ أَنَّ ٱلزَّمانَ

تَغَيَّرَ، مُنْذُ تَغَيَّرَ نَوْعُ ٱلسِّلاحِ. فَمَنْ سَوْفَ يَرْفَعُ أَصْواتَنا
إلى مَطَرٍ يابِسٍ في ٱلْغُيُومِ؟ وَمَنْ يَغْسِلُ ٱلضَّوْءَ مِنْ بَعْدِنا

وَمَنْ سَوْفَ يَسْكُنُ مَعْبَدَنا بَعْدَنا؟ مَنْ سَيَحْفَظُ عاداتِنا
مِنَ ٱلصَّخَبِ ٱلْمَعْدِنِيِّ؟ «نُبَشِّرُكُمْ بِالْحَضارَةِ» قالَ ٱلْغَريبُ، وَقال:

أنا سَيِّدُ ٱلْوَقْتِ، جِئْتُ لِكَيْ أَرِثَ الأَرْضَ مِنْكُمْ،
فَمُرُّوا أَمامي، لأُحْصِيَكُمْ جُثَّةً جُثَّةً فَوْقَ سَطْحِ ٱلْبُحَيْرَة

«أُبَشِّرُكُمْ بِٱلْحَضارَةِ» قالَ، لِتَحْيا الأناجيلُ، قالَ، فَمُرُّوا
لِيَبْقى لِيَ الرَّبُّ وَحْدي، فإنَّ هُنوداً يَموتونَ خَيْرٌ

لِسَيِّدِنا في ٱلْعُلى مِنْ هُنودٍ يَعيشونَ، وَالرَّبُّ أَبْيَض
وَأَبْيَضُ هذا ٱلنَّهارُ: لَكُمْ عالَمٌ وَلنا عالَم . . .

يَقولُ ٱلغَريبُ كَلاماً غَريباً، وَيَحْفِرُ في الأَرْضِ بِئْراً
لِيَدْفِنَ فيها ٱلسَّماءَ. يَقولُ ٱلْغَريبُ كَلاماً غَريباً

وَيَصْطادُ أَطْفالنا وَٱلْفَراشَ. بِماذا وَعَدْتَ حَديقَتَنا يا غَريب ؟
بِوَرْدٍ مِن الزِّنْكِ أَجْمَلَ مِنْ وَرْدِنا ؟ فَلْيَكُنْ ما تَشاء
وَلكِنْ، أَتَعْلَمُ أَنَّ ٱلْغَزالَةَ لا تَأْكُلُ ٱلْعُشْبَ إِنْ مَسَّهُ دَمُنا ؟

أَتَعْلَمُ أَنَّ ٱلْجَواميسَ إِخْوتُنا والنَّباتاتِ إِخْوتُنا يا غَريب ؟
فلا تَحْفِرِ الأَرْضَ أَكْثَرَ ! لا تَجْرَحِ ٱلسُّلَحْفاةَ ٱلَّتي

تَنامُ على ظَهْرِها ٱلأَرْضُ، جَدَّتُنا ٱلأَرْضُ، أَشجارُنا شَعْرُها
وَزِينتُنا زَهْرُها. «هٰذِه الأَرْضُ لا مَوْتَ فيها»، فَلا

تُغَيِّرْ هَشاشَةَ تَكْوينِها ! لا تُكَسِّرْ مَرايا بَساتينِها
وَلا تُجْفِلِ الأَرْضَ، لا تُوجِعِ الأَرْضَ. أَنْهارُنا خَصْرُها

وَأَحْفادُها نَحْنُ، أنتُمْ ونحن، فلا تَقْتُلوها. . .
سَنَذهبُ، عَمَّا قليلٍ، خُذُوا دَمَنا وآترُكوها

كما هي،
أجملَ ما كَتَبَ اللَّهُ فوقَ المياه،

لَهُ. . . ولنا
سَنَسْمَعُ أَصْواتَ أسلافِنا في الرِّياحِ، ونُصْغي
إلى نَبْضِهِمْ في بَراعِمِ أشجارِنا. هذه الأَرْضُ جَدَّتُنا

مُقَدَّسةٌ كُلُّها، حَجَراً حَجَراً، هذه ٱلأَرْضُ كُوخُ
لآلِهَةٍ سَكَنتْ مَعَنا، نَجْمةً نجمةً، وأضاءَت لَنا

لَيالي الصَّلاةِ. . . مَشَينا حُفَاةً لِنَلْمُسَ رُوحَ ٱلْحَصى
وَسِرْنا عُراةً لِتُلْبِسَنا الرُّوحُ، روحُ الهواءِ، نِسَاء

يُعِدْنَ إلينا هِباتِ ٱلطَّبيعةِ ـ تاريخُنا كانَ تاريخَها. كانَ لِلْوَقْتِ
وَقْتٌ لِنولَدَ فيها وَنَرْجِعَ مِنْها إِلَيْها: نُعيدُ إلى الأَرْضِ أَرْواحَها

رُوَيْداً رُوَيداً. وَنَحْفَظَ ذِكْرى أَحِبَّتِنا في ٱلْجِرار
مَعَ ٱلْمِلْح وٱلزَّيْتِ، كُنَّا نُعَلِّقُ أَسْماءَهُمْ بُطُيورِ ٱلجداوِل
وَكُنَّا ٱلأَوائِلَ، لا سَقْفَ بَيْنَ ٱلسَّماءِ وزُرْقَةِ أَبْوابِنا
وَلا خَيْلَ تَأْكُلُ أَعْشابَ غِزْلانِنا في ٱلْحُقولِ، وَلا غُرَباء
يَمُرُّونَ في لَيْلِ زَوْجاتِنا، فَٱتْرُكوا النَّايَ للرّيحِ تَبْكي
على شَعْبِ هذا ٱلمكانِ الجريحِ... وَتَبْكي عليكم غَدا،
وتبكي عليكم... غَدا!

٥ -

وَنحن نُوَدِّعُ نيرانَنا، لا نَرُدُّ التَّحِيَّةَ... لا تَكْتُبوا
علينا وَصايا الإلٰهِ الجديدِ، إلٰهِ ٱلحديدِ، ولا تطلُبوا
مُعاهَدةً للسَّلامِ من ٱلميِّتينَ، فلم يَبْقَ منهُمْ أَحَدْ
يُبَشِّرُكُمْ بالسَّلامِ مَعَ ٱلنَّفْسِ وٱلآخَرين، وكُنَّا هُنا
نُعمِّرُ أَكْثَرَ، لَوْلا بَنادِقُ أنجلترا وَٱلنَّبيذُ ٱلفرنْسِيُّ والانفلونزا،
وكُنّا نعيشُ كما يَنْبَغي أَنْ نَعيشَ بِرُفْقَةِ شَعْب ٱلْغَزال
وَنَحْفَظُ تاريخَنا ٱلشَّفَهِيَّ، وَكُنَّا نُبَشِّرُكُمْ بالبَراءَةِ وٱلْأُقْحُوان

لكُمْ رَبُّكم ولنا ربُّنا، ولَكُم أَمْسُكُمْ ولنا أَمْسُنا، وآلزَّمان
هُوَ آلنَّهرُ حِينَ نُحدِّقُ في آلنَّهرِ يَغْرَوْرِقُ آلْوَقْتُ فينا. . .
أَلا تَحفظونَ قليلاً من الشِّعرِ كي تُوقِفوا آلْمَذْبَحةْ ؟

أَلَمْ تولَدوا من نِساءٍ ؟ أَلَمْ تَرْضَعوا مِثْلَنا
حَليبَ آلحنينِ إلى أمَّهاتٍ ؟ ألَم تَرْتَدوا مِثلَنا أَجْنِحَةْ

لِتَلْتَحِقوا بِالسُّنونو. وكُنَّا نُبَشِّرُكُمْ بالرّبيعِ ، فلا تَشْهَروا الأَسْلِحَةْ !
وفي وُسْعِنا أَن نَتَبَادَلَ بَعْضَ آلْهَدايا وبَعْضَ الغِناء

هُنا كانَ شَعْبي. هنا ماتَ شَعْبي. هنا شَجَرُ الكستَناء
يُخَبِّىءُ أَرْواحَ شَعْبي. سَيَرْجِعُ شَعْبي هَواءً وَضَوْءاً وَماء،

خُذوا أَرْضَ أُمِّيَ بالسَّيْفِ، لكِنَّني لَنْ أُوَقِّعَ بِآسْمي
مُعاهَدَةَ الصُّلْحِ بَيْنَ آلْقَتيلِ وقاتِلِهِ، لَنْ أُوَقِّعَ بآسْمي

على بَيْعِ شِبرٍ مِنَ الشَّوْكِ حَوْلَ حُقولِ الذُّرة
وأَعْرِفُ أَنّي أُودِّعُ آخِرَ شَمْسٍ ، وأَلْتَفُّ بآسمي

وأَسْقُطُ في النَّهرِ، أَعْرِفُ أنّي أَعودُ إلى قَلْبِ أُمِّي
لِتَدْخُلَ، يا سَيِّدَ آلبيضِ ، عَصْرَكَ. . . فَآرْفَعْ على جُثَّتي

تَماثيلَ حُرّيَّةٍ لا تَرُدُّ التَّحِيَّةَ، وآحفِرْ صَليبَ آلْحديد
على ظِلِّيَ آلْحَجَريِّ، سَأَصْعَدُ عَمًّا قليلٍ أَعالي النَّشيد،
نَشيدِ آنْتِحارِ آلْجَماعاتِ حِينَ تُشيِّعُ تاريخَها لِلْبَعيد،
وَأُطلِقُ فِيها عَصافيرَ أصواتِنا: هٰهُنا آنْتَصَرَ آلْغُرَباء
على آلْمِلحِ، وَآخْتَلَطَ آلْبَحْرُ في آلْغَيْمِ، وَآنْتَصَرَ آلْغُرَباء
على قِشْرَةِ آلْقَمْحِ فينا، وَمَدُّوا الأَنابيبَ لِلْبَرْقِ وآلْكَهْرَباء
هُنا آنْتَحَرَ الصَّقْرُ غَمّاً، هُنا آنْتَصَرَ آلغُرَباء
عَلَيْنا. ولَم يَبْقَ شيءٌ لنا في الزَّمانِ الجديد
هُنا تَتَبَخَّرُ أَجْسادُنا، غَيْمةً غَيْمةً، في آلفضاء
هُنا تَتَلألأُ أَرْواحُنا، نَجْمةً نَجْمةً، في فضاءِ آلنَّشيد

٦ -

سَيَمْضي زَمانٌ طَويلٌ لِيُصْبحَ حاضِرُنا ماضياً مِثْلَنا
سَنَمْضي إلى حَتْفِنا، أَوَّلًا، سنُدافعُ عن شَجَرٍ نَرْتَديه
وَعَنْ جَرَسِ آللَّيلِ، عَنْ قَمَرٍ، فَوْقَ أَكْواخِنا نَشْتَهيه
وَعَنْ طَيْشِ غِزْلانِنا سَنُدافعُ، عن طِينِ فَخَّارِنا سَنُدافِعُ

وَعَن ريشِنا في جَناحِ ٱلأَغاني الأَخيرةِ. عمَّا قَليل
تُقِيمونَ عَالَمكُمْ فَوْقَ عَالَمِنا: مِنْ مَقابِرِنا تَفْتَحونَ ٱلطَّريق

إلى ٱلْقَمَرِ الاصطِناعيِّ. هذا زَمانُ الصِّناعاتِ. هذا
زَمانُ ٱلمَعادِنِ، مِنْ قِطْعَةِ ٱلفَحْمِ تَبْزُغُ شَمْبانيا الأَقْوِياءْ. . .

هُنالِكَ مَوْتى وَمُسْتَوطَناتٌ، وَمَوْتى وبولدوزراتٌ، وَمَوْتى
وَمُسْتَشْفَياتٌ، وَمَوْتى وَشَاشاتُ رادار تَرْصُدُ مَوْتى

يَموتونَ أَكْثَرَ مِنْ مَرّةٍ في ٱلْحياةِ، وَتَرْصُدُ مَوْتى
يَعيشونَ بَعْدَ ٱلْمَماتِ، وَمَوْتى يُرَبُّونَ وَحْشَ ٱلْحَضاراتِ مَوْتا،
وَمَوْتى يَموتونَ كَيْ يَحْمِلوا الأَرْضَ فَوْقَ الرُّفات. . .

إلى أَيْنَ، يَا سَيِّد ٱلبِيضِ، تأْخُذُ شَعْبي، . . . وَشَعْبَك ؟
إلى أَيِّ هَاوِيَةٍ يَأْخُذُ ٱلأَرْضَ هذا الرّوبوتُ ٱلْمُدَجَّجُ بَالطَّائِرات

وَحَامِلَةِ ٱلطَّائراتِ، إلى أَيِّ هاويةٍ رَحْبَةٍ تَصْعَدون ؟
لَكُم ما تَشاؤونَ: رُوما ٱلجديدةُ، إسْبَارْطةُ ٱلتكنولوجيا

و
أَيديولوجيا الجنون،

ونَحنُ، سَنَهْرُبُ مِنْ زَمَنٍ لَمْ نُهَيِّىءْ لَهُ، بَعْدُ، هاجِسَنا
سَنَمْضي إلى وَطَنِ الطَّيْرِ سِرْباً من ٱلْبَشَرِ السَّابِقين
نُطِلُّ على أَرضِنا مِنْ حَصى أَرْضِنا، مِنْ ثُقوبِ ٱلْغُيوم
نُطِلُّ على أَرْضِنا، مِنْ كَلامِ ٱلنُّجومِ نُطِلُّ على أرضِنا
مِنْ هَواءِ ٱلْبُحَيْراتِ، من زَغَبِ ٱلذُّرَةِ ٱلْهَشِّ، مِن
زَهْرَةِ ٱلقَبْرِ، من وَرَقِ ٱلحَوْرِ، مِن كُلِّ شيء
يُحاصِرُكم، أَيُّها البِيضُ، مَوْتى يَموتونَ، مَوْتى
يَعِيشونَ، مَوْتى يَعودونَ، مَوْتى يَبوحونَ بالسِّرّ،
فَلْتُمْهِلوا الأَرْضَ حتى تَقولَ الحَقيقةَ، كلَّ الحَقيقة،
عَنكم
وعنّا. . .
وعنّا
وعنكم !

٧ -

هُنالِك مَوْتى يَنامونَ في غُرَفٍ سَوْفَ تَبْنونَها

هنالِك مَوْتى يَزورونَ ماضيَهُمْ في المَكانِ آلَّذي تَهْدِمون
هنالِكَ مَوْتى يَمُرُّونَ فَوقَ الجسورِ آلَّتي سَوفَ تَبْنونَها
هنالِكَ مَوْتى يُضيئونَ لَيْلَ آلفَراشاتِ، مَوْتى
يَجيئونَ فَجْراً لكي يَشْرَبُوا شايَهُمْ مَعَكُم، هادِئين
كما تَرَكَتْهُمْ بَنادِقُكُمْ، فآتركوا يا ضُيوفَ المَكان
مَقاعِدَ خالِيَةً لِلْمُضيفينَ. . كي يَقْرَؤوا
عليكُمْ شُروطَ السَّلامِ مَعَ. . . الْمَيِّتين !

حجر كنعانيّ
في البحر الميّت

لا بابَ يَفْتَحُهُ أَمامي ٱلبَحرُ . . .
قُلتُ: قَصيدَتي
حَجَرٌ يَطِيرُ إلى أَبي حَجَلاً. أَتَعْلَمُ يا أَبي
ما حَلَّ بي ؟ لا بابَ يُغْلِقُهُ عَلَيَّ ٱلْبَحْرُ، لا
مِرْآةَ أَكْسِرُها لِيَنْتَشِرَ الطّريقُ حَصىً . . . أَمامي
أَو زَبَدْ . . .
هل مِنْ أَحَدْ
يَبْكي على أَحَدٍ لأَحْمِلَ نَايَهُ
عَنْهُ، وَأُظْهِرَ ما تَبَطَّنَ مِنْ حُطامي ؟
أَنَا مِن رُعاةِ ٱلْمِلحِ في ٱلأَغْوارِ. يَنْقُرُ طائِرٌ
لُغَتي، ويَبْني عُشَّ زُرْقَتِهِ المُبَعْثَرَ في خِيامي . . .
هَلْ مِنْ بَلَدْ
يَنْسَلُّ مِنّي كَي أَراهُ، كما أُريدُ. وكَي يَراني

في ٱلشاطيءِ ٱلْغَرْبِيِّ مِن نَفْسي على حَجَرِ ٱلأَبَدْ ؟
هذا غِيابُكَ كُلُّهُ شَجَرٌ، يُطِلُّ علَيكَ مَنكَ ومِنْ دُخاني

نامَتْ أَريحا تَحْتَ نَخْلَتِها ٱلقَديمَةِ، لَمْ أَجِدْ
أَحَداً يَهُزُّ سَريرَها: هَدَأَتْ قَوافِلُهُم فَنامي . . .

وَبَحَثْتُ لِاسْمي عن أَبٍ لِاسْمي، فَشَقَّتْني عَصاً
سِحْرِيَّةٌ، قَتْلايَ أَمْ رُؤْيايَ تَطْلُعُ مِنْ مَنامي ؟

الأَنْبياءُ جَميعُهُمْ أَهْلي، ولكنَّ السَّماءَ بَعيدَةٌ
عَنْ أَرْضِها، وَأَنا بعيدٌ عَنْ كَلامي . . .

لَا رِيحَ تَرْفَعُني إلى أَعْلى مِن الماضي هُنا
لا ريحَ تَرْفَعُ مَوْجَةً عن مِلْحِ هذا البَحْرِ، لا

رَاياتِ للمَوْتى لكي يَسْتَسْلِموا فيها، ولا
أَصْواتَ للأَحْياءِ كي يَتبادَلوا خُطَبَ ٱلسَّلَام . . .

وَٱلْبَحْرُ يَحْمِلُ ظِلِّيَ ٱلفِضِّيَّ عِنْدَ ٱلْفَجْرِ، يُرْشِدُني إلى
كَلماتِيَ الأُولى لِثَدْيِ المَرْأَةِ الأُولى، ويَحْيا مَيِّتاً
فِي رَقْصَةِ الوَثَنِيِّ حَولَ فَضائِهِ،

ويَموتُ حَيّاً في ثُنائِيِّ القَصيدةِ وآلْحُسامِ ،
ما بَيْنَ مصرَ وبينَ آسيا والشَّمالِ . . . فَيا غَريب
أوقِفْ حِصانَكَ تَحْتَ نَخْلَتِنا ! على طُرُق الشَّآمِ

يَتَبادَلُ آلغُرَباءُ في مَا بَيْنَهم خُوَذاً سَيَنْبُتُ فَوْقَها
حَبَقٌ يُوَزِّعُهُ على الدُّنْيا حَمَامٌ قد يَهُبُّ من البيوت

وَآلبحرُ مَاتَ، من الرَّتابَةِ، في وَصايا لا تَموت
وأَنا أَنا، إِنْ كنتَ أنتَ هُناك أَنتَ، أَنا الغَريب

عن نَخْلَةِ الصَّحْراءِ مُنْذُ وُلِدْتُ في هذا الزِّحامِ
وأَنا أَنا، حَرْبٌ عليَّ وفيَّ حَرْبٌ . . . يا غريب

عَلِّقْ سِلاَحَك فَوقَ نَخْلَتِنا، لأَزْرَعَ حِنْطَتي
في حَقْلِ كَنْعانَ المُقَدَّسِ . . . خُذْ نَبيذاً من جِراري

خُذْ صَفْحَةً من سِفْرِ آلِهَتي . . . وقِسْطاً من طَعامي
وخُذِ آلغَزالَةَ من فِخاخِ غِنائِنا الرَّعَوِيِّ، خُذْ

صَلَواتِ كَنْعانِيَّةٍ في عِيدِ كَرْمَتِها، وخُذْ عاداتِنا
فِي الرِّيِّ . خُذْ مِنَّا دُرُوسَ البَيْتِ . ضَعْ

حَجَراً من ٱلآجُرِّ، وٱرْفَعْ فَوقَهُ بُرْجَ ٱلْحَمامِ
لِتَكونَ مِنّا إن أَرَدْتَ، وجارَ حِنْطَتِنا. وَخُذْ

مِنَّا نُجومَ الأَبْجَدِيَّةِ، يَا غَريب
وٱكْتُبْ رِسالاتِ السَّماءِ مَعي إلى

خَوْفِ ٱلشُّعوبِ من ٱلطَّبيعَةِ والشُّعوب،
وٱتْرُكْ أَريحا تَحْتَ نَخلَتِها، ولا تَسْرِقْ مَنامي

وَحَليبَ إمْرَأَتي، وقُوتَ ٱلنَّمْلِ في جُرْحِ الرُّخامِ!
أَأَتَيْتَ... ثُمَّ قَتَلْتَ... ثُمَّ وَرِثْتَ، كَي

يَزْدادَ هذا ٱلبَحْرُ مِلْحا؟
وأَنا أَنا أَخْضَرُّ عاماً بعدَ عامٍ فَوْقَ جِذْعِ السِّنديان

هذا أَنا، وأَنا أَنا. وهنا مَكاني في مَكاني
وٱلآنَ في الماضي أَراكَ، كَما أَتَيْتَ، ولا تَراني

وٱلآنَ في الماضي أُضيءُ لِحاضِري
غَدَهُ... فَيَنْأَى بي زَماني عَنْ مَكاني
حيناً، ويَنْأَى بي مَكاني عَنْ زَماني

وٱلأَنْبَياءُ جَميعُهُمْ أَهْلي، ولكِنَّ السَّماءَ بَعيدَةٌ

عَنْ أَرْضِها، وأَنا بَعيدٌ عن كَلامي
والبَحْرُ يَنْزِلُ تَحْتَ سَطْحِ ٱلْبَحْرِ كَيْ تَطْفُو عِظامي

شَجَراً. غِيابي كُلُّهُ شَجَرٌ. وبابي ظِلُّهُ

قَمَرٌ. وكَنْعانِيَّةٌ أُمِّي. وهَذا ٱلْبَحْرُ جِسْرٌ ثابِتٌ
لِعُبورِ أَيَّامِ ٱلقِيامَةِ. يا أبي، كَمْ مَرَّةً

سَأَموتُ فَوْقَ فِراشِ إِمْرَأَةِ ٱلأَساطيرِ ٱلَّتي
تَخْتَارُهَا «آنَاتُ» لي، فَتَشُبُّ نارٌ في ٱلْغَمامِ

كَمْ مَرَّةً سَأَموتُ في نَعْناعِ أَحْواضي ٱلقَديمَةِ كُلَّما
فَرَكَتْهُ رِيحُ شَمالِكَ الْعالي رَسائِلَ من يمامِ ؟

هَذَا غَيابي سَيِّدٌ يَتْلُو شَرائِعَهُ على
أَحْفادِ لُوطَ، ولا يَرى لِسَدومَ مَغْفِرَةً سِوَايْ

هذا غِيابي سَيِّدٌ يَتْلو شَرائِعَهُ ويَسْخَرُ من رُؤايْ
ما قِيمَةُ ٱلْمِرْآةِ لِلْمِرْآةِ ؟لي وَجْهٌ عَليكَ، وأَنتَ لا

تَصْحو مِنَ ٱلتَّاريخِ، لا تَمْحو بُخارَ ٱلْبَحْرِ عَنْكْ

وٱلْبَحْرُ، هذا ٱلْبَحْرُ، أَصْغَرُ من خُرافَتِهِ وأَصْغَرُ مِنْ يَدَيْكْ
هو بَرْزَخُ ٱلبَلُّورِ، أَوَّلُهُ كَآخِرِهِ، وَلاَ مَعْنَى هنا

لِدخولِكَ ٱلعَبَثِيِّ في أُسْطورَةٍ تَرَكَتْ جُيوشاً للرُّكامِ
لِيَمُرَّ جَيْشٌ آخَرٌ يَرْوي رِوايَتَهُ وَيَحْفِرَ لِاسْمِهِ
جَبَلاً، ويَأْتي ثالِثٌ ويَخُطُّ سِيْرَةَ زَوْجَةٍ خانَتْ، ويَمْحو رابعٌ

أَسْماءَ مَنْ سَبَقوا. هُنَاكَ لِكُلِّ جَيْشٍ شاعِرٌ
وَمُؤَرِّخٌ، ورَبابَةٌ لِلرَّاقِصاتِ السَّاخِراتِ مِنَ ٱلْبِدايَةِ والخِتامِ . . .

وسُدىً أُفَتِّشُ عَن غِيابي، فهو أَبْسَطُ من حَمِيرِ
ٱلأَنْبِياءِ تَمُرُّ فَوقَ ٱلسَّفْحِ حامِلَةً سَماءً للأَنامِ . . .

وٱلْبَحْرُ، هذا ٱلْبَحْرُ، في مُتَناوَلِ الأَيْدي. سَأَمْشي فَوْقَهُ
وأَسُكُّ فِضَّتَهُ، وأَطْحَنُ مِلْحَهُ بِيَدَيَّ. هَذا ٱلْبَحْرُ لا

يَحْتَلُّهُ أَحَدٌ. أَتى كِسْرَى وَفِرْعَوْنٌ وَقَيْصَرُ وٱلنَّجاشي
وٱلآخَرُونَ، لِيَكْتُبُوا أَسْماءَهم، بِيَدِي، على أَلْواحِهِ

فَكَتَبْتُ: لِاسْمي الأَرْضُ، وٱسْمُ الأَرْضِ ٱلِهَةٌ تُشارِكُني مُقامي
في ٱلْمَقْعَدِ ٱلْحَجَرِيِّ. لَمْ أَذْهَبْ ولَمْ أَرْجِعْ مَعَ الزَّمَنِ الهُلامي

وأنا أنا، ولو آنْكَسَرْتُ. . . رَأَيْتُ أيَّامي أمامي
ذَهَباً على أشْجارِيَ الأولى، رَأَيْتُ رَبيعَ أُمِّي، يا أبي

وَرَأَيْتُ رِيشَتَها تُطَرِّزُ طائِرَيْنِ: لِشالِها، وَلِشالِ أُخْتي
وفَراشَةً لَمْ تَحْتَرِقْ بِفَراشَةٍ مِنْ أجْلِنا، وَرَأَيْتُ لِاسْمي

جَسَداً: أنا ذَكَرُ آلْحَمامِ يَئِنُّ في أُنْثَى آلْحَمامِ.
ورَأَيْتُ مَنْزِلَنا المُؤَثَّثَ بِالنَّباتِ، رَأَيْتُ باباً لِلدُّخول

ورَأَيْتُ باباً لِلْخُروجِ، رَأَيتُ باباً لِلْخُرُوجِ وَلِلدُّخول. . .
هَلْ مَرَّ نوحٌ مِنْ هُناكَ إلى هُناكَ لِكَيْ يَقول

ما قال في الدُّنْيا: لَها بابانِ مُخْتَلِفانِ، لكنَّ آلْحِصانَ يَطيرُ بي
ويَطيرُ بي أعْلى وأسْقُطُ مَوْجَةً جَرَحَتْ سُفوحاً، يا أبي

وأنا أنا ولوِ آنْكَسَرْتُ، رَأَيْتُ أيَّامي أمامي
ورَأَيْتُ بَيْنَ وَثائِقي قَمَراً يُطِلُّ على ظلامي

ورَأَيْتُ هاوِيَةً، رَأَيْتُ آلْحَرْبَ بَعْدَ آلْحَرْبِ، تِلْكَ قَبيلَةٌ
دالَتْ، وتِلْكَ قَبيلَةٌ قالَتْ لِهولاكو آلْمُعاصِرِ: نَحْنُ لَك
وأقُولُ: لَسنا أُمَّةً أمَةً، وأبْعَثُ لِابْنِ خَلْدونَ آحْتِرامي

وأَنا أَنا، ولوِ ٱنْكَسَرْتُ على ٱلْهَواءِ المَعْدِنِيِّ . . . وأَسْلَمَتْني
حَرْبُ الصَّليبِيِّ ٱلجَديدِ إلى إلٰهِ ٱلانْتِقامِ
وإلى ٱلمَغوليِّ ٱلمُرابِطِ خَلْفَ أَقْنِعَةِ ٱلإمامِ
وإلى نِساءِ المِلْحِ في أُسْطورَةٍ نَخَرَتْ عِظامي . . .
وأَنا أَنا، إنْ كُنْتَ أَنتَ أبي، ولكنِّي غَريبْ
عَنْ نَخْلَةِ ٱلصَّحْراءِ مُنْذُ وُلِدْتُ فِي هذا الزِّحامِ
وأَنا أَنا، لا بابَ يَفْتَحُهُ أَمامي ٱلْبَحْرُ
قُلتُ: قَصيدَتي
حَجَرٌ يَطِيرُ إلى أَبي حَجَلاً. أَتَعْلَمُ يا أَبي
ما حَلَّ بي ؟ لاَ بابَ يُغْلِقُهُ عَليَّ ٱلْبَحْرُ. لا
مِرْآةَ أَكْسِرُها لِتَنْتَشِرَ ٱلطَّريقُ رُؤىً . . . أَمامي
والأَنْبِياءُ جَمِيعُهُمْ أَهْلي، ولكنَّ ٱلسَّماءَ بَعيدَةٌ
عن أَرْضِها، وأَنا بَعيدٌ عَنْ كَلامي . . .

سنختار سوفوكليس

إذا كانَ هذا ٱلخَريفُ ٱلْخَريفَ ٱلنِّهائِيَّ ، فَلنَعْتَذِرْ
عَنِ ٱلْمَدِّ وٱلْجَزْرِ في ٱلْبَحْرِ وٱلْذِّكْرَياتِ . . . وَعَمَّا صَنَعْنا
بإِخْوَتِنا قَبْلَ عَصْرِ ٱلنُّحاسِ : جَرَحْنا كَثيراً مِنَ ٱلكائِناتِ
بأَسْلِحَةٍ صُنِعَتْ مِنْ هَياكِلِ إِخْوتِنا ، كَي نَكونَ
سُلَالَتَهُمْ قُرْبَ ماءِ ٱلْيَنابيعِ ، ولْنَعْتَذِرْ
لأَهْلِ ٱلْغَزالَةِ عَمَّا صَنَعْنا بِها قُرْبَ ماءِ ٱلْيَنابيعِ ، حِينَ
تَدَفَّقَ خَيْطٌ مِنَ ٱلأُرْجُوانِ على الماءِ ، لم نَنْتَبِهْ أَنَّهُ دَمُنا
يُؤَرِّخُ سِيْرَتَنا في شَقائِقِ هذا ٱلمَكانِ ٱلْجَميلْ

□

وإِنْ كانَ هذا ٱلْخَريفُ ٱلْخَريفَ ٱلنِّهائِيَّ ، فلْنَتَّحِدْ بالسُّحُبْ
لنُمْطِرَ مِنْ أَجْلِ هذا ٱلنَّباتِ ٱلْمُعَلَّقِ فَوقَ أَناشيدِنا .
لِنُمْطِرَ فَوْقَ جُذوعِ الأساطيرِ . . . وٱلأُمَّهاتِ ٱللَّواتي وَقَفْنَ
على أَوَّلِ ٱلْعُمْرِ كَي يَسْتَعِدْنَ حِكايَتَنا مِنْ رُواة

أَطالوا عليها فُصولَ الرَّحيل،
أما كَانَ في وُسْعِنا أَنْ نُعَدِّلَ فَصْلَ ٱلرَّحيلِ قَليلا
لِيَهْدَأَ فينا صُراخُ النَّخيل؟

□

وُلِدْنا هُناكَ على خَيْلِنا، وَٱحْتَرَقْنا بشَمْسِ أَريحا ٱلقَديمَة
رَفَعْنا سُقوفَ ٱلبُيوتِ لِيَرْتَدِيَ ٱلظِّلُّ أَجْسادَنا، وٱحْتَفَلْنا
بعيدِ ٱلكُرومِ وَعيدِ ٱلشَّعيرِ، وزَيَّنتِ الأَرْضُ أَسْماءَنا
بِسَوْسَنِها وٱسْمِها. وصَقَلْنا حِجارتَنا كَي تَرِقَّ... تَرِقَّ
على مَهَلٍ في بُيوتٍ يُلَمِّعُها الضَّوْءُ وٱلْبُرْتُقالُ، وَكُنَّا
نُعَلِّقُ أَيّامَنا في مَفاتيحَ مِنْ خَشَبِ ٱلسَّرْوِ. كُنَّا نَعيشُ
على مَهَلٍ، كانَ لِلْعُمْرِ طَعْمُ ٱلْفُروقِ ٱلصَّغيرَةِ بَيْنَ ٱلْفُصول

□

وإنْ كانَ هذا ٱلخَريفُ الخَريفَ ٱلنِّهائِيَّ، فَلْنَبْتَعِدْ عَنْ
سَماءِ ٱلْمَنافي وَعَنْ شَجَرِ الآخَرينَ. كَبِرْنا قَليلًا
ولَم نَنْتَبِهْ للتَّجاعيدِ في نَبْرَةِ النَّايِ... طالَ ٱلطَّريق

ولم نَعْتَرِفْ أَنَّنا سائِرونَ على دَرْبِ قَيْصَرَ. لَمْ نَنْتَبِهْ لِلْقَصيدَة
وقد أَفْرَغَتْ أَهْلَها مِنْ عَواطِفِهِمْ كَيْ تُوَسِّعَ شُطْآنَها

وَتَنْصِبَ خَيْمَتَنا حَيْثُ أَلْقَتْ بِنا آلحَرْبُ بَيْنَ أَثينا وفارِسْ
وبَيْنَ آلْعِراقِ وَمِصْرَ. وَنَحْنُ نُحِبُّ آلْمَحاريثَ أَكْثَرَ مِمَّا

نُحِبُّ السُّيوفَ، نُحِبُّ هَواءَ آلْخَريْفِ، نُحِبُّ آلْمَطَرْ
نُحِبُّ الطَّبيعَةَ عاشِقَةً في تَقاليدِ آلِهَةٍ وُلِدَتْ بَيْنَنا

لِتَحْمِيَنَا مِنْ زِياحِ آلْجَفافِ وخَيْلِ آلْعَدُوِّ آلَّذي نَجْهَلُهْ،
ولكنَّ أبوابَنا بين مصرَ وبابلَ مفتوحةٌ للحروب
ومَفْتوحةٌ لِلرَّحيل.

□

. . . وإنْ كانَ هذا آلخَريفُ الخَريفَ آلنِّهائِيَّ، فَلْنَخْتَصِرْ
مَدائِحَنا لِلأَواني آلْقَديمَةِ، حَيْثُ حَفَرْنا عَلَيْها مَزاميرَنا

فَقَدْ حَفَرَ الآخَرونَ على ما حَفَرْنا مَزاميرَ أُخْرى
ولَمْ تَنْكَسِرْ بَعْدُ. تَصْعَدُ فَوْقَ الدُّروعِ آلقَديمَةِ خُبَّيْزَةٌ
لِتُخْفِيَ أَزْهارُها الحُمْرُ ما صَنَعَ آلسَّيْفُ بآلإِسْمِ. آثارُنا

سَتَخْضَرُّ منها الظِّلالُ إذا ما آسْتَطَعْنا آلْوُصول
إلى أُمِّنا، في نِهايَةِ هذا آلْمَمَرِّ الطَّويل.

□

لَنا ما لَنا. كُلُّ شَيءٍ لَنا: مُفْرَداتُ آلْوَداع
تُعِدُّ لَنا طَقْسَ زينَتِها... كُلُّ مُفْرَدَةٍ إِمْرَأَةْ
على آلْبابِ تَحْرُسُ رَجْعَ الصَّدى. كلُّ مُفْرَدَةٍ شَجَرَةْ
تَدُقُّ مَعَ الرِّيحِ قُفْلَ الْمَدى. كُلُّ مُفْرَدَةٍ شُرْفَةْ
تُطِلُّ على بُقَعِ الغَيْمِ في السَّاحَةِ آلخالِيَةْ
تُطِلُّ على ظِلِّها فَوقَ ريشِ آلهُدَيل...

□

لَنا ما لَنا. كُلُّ شَيءٍ هُناكَ لَنا... أَمْسُنا
يُرَتِّبُ أحْلامَنا، صُورَةً صُورَةً، ويُهَذِّبُ أَيَّامَنا
وأيَّامَ إِخْوَتِنا السَّابِقينَ، وأَيَّامَ أَعْدائِنا السَّابِقين،
وَنَحْنُ الَّذينَ آحْتَرَقْنا بشَمْسِ آلْبِلادِ آلْبَعيدةِ، نَحْنُ الَّذين
نَجيءُ إلى أوَّلِ الأَرْضِ كَيْ نَسْلُكَ الطُّرُقَ السَّابِقَة

وكَي نَمْلِكَ آلوَرْدَةَ السَّابِقَة
وكَي نَنْطِقَ اللُّغَةَ السَّابِقَة
سَنَخْتارُ «سوفوكلَ» قَبْلَ «آمْرِيءِ آلقَيْسِ»، مَهْما
تَغَيَّرَ تِينُ الرُّعاةِ، وصَلَّى لِقَيْصَرَ إخْوَتُنا السَّابِقون
وأَعْداؤُنا السَّابقونَ مَعاً في آحْتِفالِ الظَّلام...

ومَهْما تَغَيَّرَ دِينُ الرُّواةِ، فلا بُدَّ مِنْ شاعِرٍ
يُفَتِّشُ عَنْ طائِرٍ في الزِّحامِ لِيَخْدِشَ وَجْهَ الرُّخام
ويفتَحَ فَوْقَ السُّفوحِ مَمَرَّاتِ آلِهَةٍ عَبَرَتْ مِنْ هُنا
لِتَنْشُرَ أَرْضَ السَّماءِ على الأَرْضِ. لا بُدَّ مِنْ ذَاكِرَة
لِنَنْسى ونَغْفِرَ حِيْنَ يَحُلُّ السَّلامُ النِّهائِيُّ مَا بَيْنَنا

وَبَيْنَ آلغَزالَةِ والذِّئْبِ، لا بُدَّ مِنْ ذاكِرَة
لِنَخْتارَ «سوفوكلَ»، في آخِرِ الأَمْرِ، كَي يَكْسِرَ الدَّائِرَة
ولا بُدَّ مِنْ فَرَسٍ فَوْقَ ساحاتِ هذا الصَّهيل...

□

لَنا في آلخَريفِ قَصيدَةُ حُبٍّ... قَصيدَةُ حُبٍّ قَصيرَة

تَدورُ بِنا الرِّيحُ، يا حُبُّ، نَسْقُطُ قُرْبَ ٱلْبُحَيْرَةِ أَسْرى
نُداوي ٱلْهَواءَ ٱلْمَريضَ، نَهُزُّ ٱلغُصونَ لِنَسْمَعَ نَبْضَ ٱلْهَواء

نُخَفِّفُ طَقْسَ ٱلْعِبادَةِ، نَتْرُكُ آلِهَةً للشُّعوبِ على الشَّاطِئَيْن
ونَحْمِلُ أَصْغَرَها مَعَ زادِ الطَّريقِ، وَنَحْمِلُ هذا الطَّريقَ. . . وَنَمْشِي

وَعِنْدَ ٱلْيَنابيعِ نَقْرَأُ آثارَنا: هَلْ مَرَرْنا هُنا ؟
وهَلْ نَحْنُ أَصْحابُ هذا الزُّجاجِ المُلَوَّنِ. . . هَلْ نحنُ نحنُ؟

سَنَعْرِفُ ما صَنَعَ السَّيْفُ بالإسمِ عمَّا قَليل
فَيا حُبُّ أَبْقِ لَنا ما لَنا. . . مِنْ هَواءِ ٱلْحُقول. . .

قَصيدَةُ حُبٍّ لَنا في ٱلْخَريفِ، قَصيدَةُ حُبٍّ أَخيرَة

وَلم نَسْتَطِعْ أَنْ نُقَصِّرَ عُمْرَ الطَّريقِ، ولكنَّ أَعْمارَنا
تُطارِدُنا كَيْ نَحُثَّ خُطانا إلى أَولِ ٱلْحُبِّ، يا حُبُّ كُنّا

ثَعالِبَ ذاكَ ٱلسِّياجِ وَبابونِجَ السَّهلِ. كُنَّا نَرى ما نُحِسُّ،
وَكُنَّا نَدُقُّ على جَرَسِ ٱلْوَقْتِ بُنْدُقَنا. كانَ فينا طَرِيقٌ

وَحيدٌ إلى السَّاحَةِ ٱلْقَمَرِيَّةِ، وَاللَّيْلُ لا لَيْلَ فيهِ
سِوى ثَمَرِ التُّوتِ، كانَ لَنا قَمَرٌ واحِدٌ في ٱلْكَلام

وكُنَّا رُواةَ ٱلحِكايَةِ قَبْلَ وُصولِ ٱلغُزاةِ إلى غَدِنا . . .
فَيا لَيْتَنا شَجَرٌ في ٱلأَغاني لِنُصْبحَ باباً لِكُوخٍ ، وسَقْفاً

لِبَيْتٍ، وَطاوِلَةً لِعَشاءِ ٱلْمُحِبِّينَ، أوْ مَقْعَداً لِلظَّهيرة
ويا حُبُّ، أَبْقِ عَلَيْنا قَليلاً لِنَغْزِلَ ثَوْبَ السَّرابِ ٱلْجَميل

□

يُسامِرُنا ظِلُّنا فِي ٱلْجَنوبِ، وتَعْوي إناثُ ٱلْوُحوش
على قَمَرٍ أَحْمَرٍ فَوْقَنا. سَوْف نَلْمُسُ خُبْزَ الرُّعاة

ونَلْبِسُ كَتَّانَ أَثْوابِهِمْ كَيْ نُفاجِئَ أَنْفُسَنا . . .
تِلْك أَيَّامُنا

تَمُرُّ، قُبالَتَنا، في آنْتِظامٍ بَطيءِ ٱلْخُطى . . .
تِلْكَ أَيَّامُنا

تَمُرُّ على عَرَباتِ ٱلْجُنودِ وَتَرْمِي تَحِيَّتَها لِلسُّفوحِ ٱلْخَفيفَة
«سَلاماً على أَرْضِ كَنْعان، أَرْضِ ٱلْغَزالَةِ، وَٱلأُرْجُوان»
وأَيَّامُنا تِلْكَ . . .

تَنْسَلُّ خَيْطاً وَخَيْطاً، ونَحْنُ الَّذين

نَسَجْنا عَباءَةَ أَيَّامِنا. لَمْ يَكُنْ للإلٰهَةِ دَوْرٌ
سِوى أَنَّها سامَرَتْنا، وَصَبَّت لَنا خَمْرَها. . .
تِلْكَ أَيَّامُنا

تُطِلُّ عَلَيْنا لِنَعْطَشَ أَكْثَرَ. . لَمْ نَتَعَرَّفْ على جُرْحِنا في
زِحامِ ٱلْجُروحِ ٱلْقَديمَةِ، لكِنَّ هذا ٱلْمكانَ ـ النَّزيف

يُسَمَّى بأَسْمائِنا. لَمْ نَكُنْ مُخْطِئينَ لأَنَّا وُلِدْنا هُنا
ولا مُخْطِئينَ. . . لأَنَّ غُزاةً كَثيرينَ هَبُّوا عَلَيْنا

هُنا، وأَحَبُّوا مَدائِحَنا لِلنَّبيذِ، أَحَبُّوا أَساطيرَنا
وفِضَّةَ زَيْتونِنا. لَمْ نَكُنْ مُخْطِئينَ لأَنَّ ٱلْعَذارى

على أَرْضِ كَنْعانَ عَلَّقْنَ فَوْقَ رُؤوسِ ٱلْوعول
سَراويلَهُنَّ، لِيَنْضَجَ تينُ ٱلْبَراري ويَكْبَرَ خَوْخُ السُّهول،

ولا مُخْطِئينَ. . لأَنَّ رُواةً كَثيرينَ جاؤوا إلى أَبْجَدِيَّتِنا
لِكَيْ يَصِفوا أَرْضَنا، مِثلَنا مِثلَنا، تِلْكَ أَصْواتُنا

وَأَصْواتُهُمْ تَتَقاطَعُ فَوْقَ التِّلالِ صَدىً وَاحِداً لِلصَّدى
وَيَخْتَلِطُ النَّايُ فِي النَّايِ، والرِّيحُ تَعْوي وتَعْوي سُدى

كأنَّ أناشيدَنا في ٱلْخَريفِ أناشيدُهُمْ في ٱلخَريف
كأنَّ ٱلْبِلادَ تُلَقِّنُنا ما نَقول. . .
ولكنَّ عِيدَ الشَّعيرِ لَنا، وَأريحا لَنا، ولَنا
تَقاليدُنا فِي مَديحِ ٱلْبُيوتِ وَتَرْبِيَةِ ٱلْقَمْحِ وٱلأُقْحُوان

□

سَلاماً على أَرْضِ كَنْعانَ،
أَرْضِ ٱلْغَزالَةِ،
وٱلارْجُوان

شتاء ريتا

ريتا تُرَتِّبُ لَيْلَ غُرْفَتِنا: قَليلُ
هذا النَّبيذُ،
وهذه ٱلأَزْهارُ أَكْبَرُ مِنْ سَريري
فٱفْتَحْ لَها الشُّبَّاكَ كَي يَتَعَطَّرَ اللَّيلُ الجَميلُ
ضَعْ، ههُنا، قَمَراً على الكُرْسِيِّ. ضَعْ
فَوْقَ، البُحَيْرَةَ حَوْلَ مِنْديلي لِيَرْتَفِعَ ٱلنَّخيلُ
أَعْلى وأَعْلى،
هَلْ لَبِسْتَ سِوايَ؟ هَلْ سَكَنَتْكَ إِمْرَأَةٌ
لِتُجْهِشَ كُلَّما ٱلْتَفَّتْ على جِذْعي فُروعُكَ ؟
حُكَّ لي قَدَمي، وحُكَّ ذَمي لِنَعْرِفَ ما
تُخَلِّفُهُ العَواصِفُ والسُّيولُ
مِنِّي ومِنك. . .

تَنامُ ريتا في حَديقَةِ جِسْمِها

توتُ السِّياجِ على أَظافِرِها يُضيءُ المِلْحَ في
جَسَدي. أُحِبُّكِ. نامَ عُصْفورانِ تحتَ يَدَيَّ...
نامَتْ مَوْجَةُ القَمْحِ النَّبيلِ على تَنَفُّسِها البَطيءِ،
وَوَرْدَةٌ حَمْراءُ نامَتْ في المَمَرِّ،
ونامَ لَيْلٌ لا يَطولُ
والبَحْرُ نامَ أَمامَ نافِذَتي على إيقاعِ ريتا
يَعْلو ويَهْبِطُ في أَشِعَّةِ صَدْرِها العاري، فَنامي
بَيْني وبَيْنَكِ، لا تُغَطِّي عَتْمَةَ الذَّهَبِ العَميقَةَ بَيْنَنا
نامي يَداً حَوْلَ الصَّدى،
ويَداً تُبَعْثِرُ عُزْلَةَ الغاباتِ، نامي
بينَ القَميصِ الفُسْتُقِيِّ وَمَقْعَدِ اللَّيْمونِ، نامي
فَرَساً على راياتِ لَيْلَةِ عُرْسِها...
هَدَأَ الصَّهيلُ
هَدَأَت خَلايا النَّحْلِ في دَمِنا، فَهَلْ كانَتْ هُنا
ريتا، وهَلْ كُنَّا مَعا ؟

... ريتا سَتَرْحَلُ بَعْدَ ساعاتٍ وتَتْرُكُ ظِلَّها

زَنْزَانَةً بَيْضاءَ. أينَ سَنَلْتَقي؟
سَأَلَتْ يَدَيْها، فالْتَفَتُّ إلى البَعيد

البَحْرُ خَلْفَ البابِ، والصَّحْراءُ خَلْفَ البَحْرِ، قَبِّلْني على
شَفَتَيَّ ـ قالَتْ. قُلْتُ: يا ريتا، أَأَرْحَلُ من جَديد
ما دامَ لي عِنَبٌ وذاكِرَةٌ، وتَتْرُكُني الفُصولُ

بينَ الإشارَةِ والعِبارَةِ هاجِساً ؟
ماذا تَقولُ ؟

لا شَيْءَ يا ريتا، أُقَلِّدُ فارِساً في أُغْنيَة
عن لَعْنَةِ الحُبِّ المُحاصَرِ بالمَرايا. . .

عَنِّي ؟
وعن حُلُمَيْنِ فَوْقَ وِسادَةٍ يَتَقاطَعانِ ويَهْرُبانِ، فَواحِدٌ

يَسْتَلُّ سِكِّيناً، وآخَرُ يُودِعُ النَّايَ الوَصايا
لا أُدْرِكُ المَعْنى، تَقولُ

ولا أَنا، لُغَتي شَظايا
كَغِيابِ إِمْرَأةٍ عن المَعْنى، وتَنْتَحِرُ الخُيولُ

في آخِرِ المَيْدان . . .

ريتا تَحْتَسي شايَ الصَّباحِ
وتُقَشِّرُ التُّفاحَةَ الأُولى بعَشْرِ زَنابِقٍ،
وتَقولُ لي :
لا تَقْرَأِ الآنَ الجَريدَةَ، فالطُّبولُ هي الطُّبولُ
والحَرْبُ لَيْسَتْ مِهْنَتي . وأَنا أَنا . هَلْ أَنتَ أَنتَ ؟
أَنا هُوَ،
هو مَنْ رَآكِ غَزالَةً ترمي لآلِئَها عَلَيْه

هُوَ مَنْ رَأى شَهَواتِهِ تَجْري وَراءَكِ كالغَدير
هُوَ مَنْ رَآنا تائِهَيْنِ تَوَحَّدا فَوْقَ السَّرير
وتَباعَدا كَتَحِيَّةِ آلْغُرَباءِ في آلْمِيناءِ، يَأْخُذُنا الرَّحيلُ
في ريحِهِ وَرَقاً ويَرْمينا أمامَ فَنادِقِ آلْغُرَباءِ

مثلَ رسائلٍ قُرِئَتْ على عَجَلٍ،
أَتَأْخُذُني مَعَكْ؟
فَأكونَ خاتَمَ قَلْبِكَ آلْحافي، أَتَأْخُذُني مَعَكْ

فَأكونَ ثَوْبَكَ في بِلادٍ أَنْجَبَتْكَ . . . لِتَصْرَعَكْ
وأكونَ تابوتاً من النَّعْناعِ يَحْمِلُ مَصْرَعَكْ
وتَكونَ لي حَيّاً ومَيْتاً،

ضاعَ يا ريتا الدَّليلُ
والحُبُّ مِثْلُ المَوْتِ وَعْدٌ لا يُرَدُّ . . . ولا يَزولُ

. . . ريتا تُعِدُّ لِيَ النَّهارْ
حَجَلاً تَجَمَّعَ حَوْلَ كَعْبِ حِذائِها العالي :

صَباحُ الخَيْرِ يا ريتا،
وغَيْماً أَزْرَقاً للياسَمِينَةِ تَحْتَ إِبْطَيْها :

صَباحُ الخَيْرِ يا ريتا،
وفاكِهَةً لضَوْءِ الفَجْرِ : يا ريتا صَباحُ الخَيْرِ، يا

ريتا أعيديني إلى جَسَدي لِتَهْدَأَ لَحْظَةً
إِبَرُ الصَّنَوْبَرِ في دَمي المَهْجورِ بَعْدَكِ . كُلَّما

عانَقْتُ بُرْجَ العاجِ فرَّتْ من يَدَيَّ يَمامَتان . .
قَالتْ : سَأَرْجِعُ عِنْدَما تَتَبَدَّلُ الأيَّامُ والأحْلامُ، يا ريتا . . . طَويلُ

هذا الشِّتاءُ، ونَحنُ نَحنُ، فلا تَقولي ما أَقولُ أَنا هيَ،
هِيَ مَنْ رَأَتْكَ مُعَلَّقاً فوقَ السِّياجِ، فَأَنْزَلَتْكَ وضَمَّدَتْكْ
وبِدَمْعِها غَسَلَتْكَ، وآنْتَشَرَتْ بسَوْسَنِها عَلَيْكْ
وَمَرَرْتَ بينَ سُيوفِ إخْوَتِها ولَعْنَةِ أمِّها. وأَنا هِيَ
هل أَنتَ أنتْ؟

. . . تَقومُ ريتا

عن رُكْبَتَيَّ، تَزُورُ زينَتَها، وتَرْبُطُ شَعْرَها بفَراشَةٍ
فِضِّيَّةٍ. ذَيْلُ الحِصانِ يُداعِبُ النَّمَشَ المُبَعْثَرْ
كَرَذاذِ ضَوْءٍ داكِنٍ فوقَ الرُّخامِ الأُنْثَوِيِّ. تُعيدُ ريتا

زِرَّ القَميصِ إلى القَميصِ الخَرْدَلِيِّ. . . أأَنتَ لي؟
لَكِ، لو تَرَكْتِ البابَ مَفْتوحاً على ماضِيَّ، لي
ماضٍ أَراهُ الآن يُولَدُ من غِيابِكِ،
من صَرِيرِ الوَقْتِ في مِفْتاحِ هذا البابِ، لي
ماضٍ أَراهُ الآنَ يَجْلِسُ قُرْبَنا كالطَّاوِلَةْ،
لي رَغْوَةُ الصَّابونِ،

والعَسَلُ المُمَلَّحُ،
والنَّدى،
والزَّنْجَبيلُ

ولَكَ الأَيائِلُ، إنْ أرَدْتَ، لَكَ الأَيائِلُ والسُّهولُ
ولَكَ الأَغاني، إنْ أرَدْتَ، لَكَ الأَغاني والذُّهولُ
إني وُلِدْتُ لكي أُحِبَّكْ
فَرَساً تُرَقِّصُ غابَةً، وتَشُقُّ في ٱلمَرْجان غَيْمَكْ
وَوُلِدْتُ سَيِّدَةً لسَيِّدِها، فَخُذْني كَي أَصُبَّكْ

خَمْراً نِهائِيّاً لأشْفى مِنْكَ فيكَ، وهاتِ قَلْبَكْ
إنّي وُلِدْتُ لكي أُحِبَّكْ
وتَرَكْتُ أُمّي في المَزامِيرِ القَديمَةِ تَلْعَنُ الدُّنْيا وشَعْبَكْ
وَوَجَدْتُ حُرَّاسَ المَدينَةِ يُطْعِمونَ النَّارَ حُبَّكْ
وأنا وُلِدْتُ، لكي أُحِبَّكْ

. . . ريتا تُكَسِّرُ جَوْزَ أَيّامي، فَتَتَّسِعُ الحُقولُ
لِيَ هذه الأَرْضُ الصَّغيرةُ غُرْفَةٌ في شارِعٍ

في الطَّابِقِ الأرْضِيِّ من مَبْنًى على جَبَلٍ
يُطِلُّ على هَواءِ البَحْرِ. لي قَمَرٌ نَبيذِيٌّ، ولي حَجَرٌ صَقيلُ

لي حِصَّةٌ من مَشْهَدِ المَوْجِ المُسافِرِ في الغُيومِ، وحِصَّةٌ
من سِفْرِ تَكْوينِ البِدايَةِ، حِصَّةٌ من سِفْرِ أَيّوبٍ، وَمِنْ

عيدِ الحَصادِ، وحِصَّةٌ مِمّا مَلَكْتُ، وحِصَّةٌ من خُبْزِ أُمّي
لي حِصَّةٌ من سَوْسَنِ الوِدْيانِ في أَشْعارِ عُشَّاقٍ قُدامى

لي حِصَّةٌ من حِكْمَةِ العُشَّاقِ: يَعْشَقُ وَجْهَ قاتِلِهِ القَتيلُ،
لَو تَعْبُرينَ ٱلنَّهْرَ، يا ريتا.
وأَينَ ٱلنَّهْرُ؟ قالَتْ. . .

قُلْتُ: فيكِ وفِيَّ نَهْرٌ واحِدٌ،
وأنا أَسيلُ دَماً، وذاكِرَةً أَسيلُ

لَمْ يَتْرُكِ الحُرَّاسُ لي باباً لأَدْخُلَ، فَٱتَّكَأْتُ على الأُفُقْ
وَنَظَرْتُ تَحْتَ،

نَظَرْتُ فَوْقَ،
نَظَرْتُ حَوْلَ،

فلَمْ أَجِدْ

أُفقاً لأَنْظُرَ، لَمْ أجِدْ في الضَّوْءِ إلاَّ نَظْرَتي
تَرْتَدُّ نَحْوي. قُلتُ: عُودي مَرَّةً أُخْرى إليَّ، فَقَدْ أَرى
أَحَداً يُحَاوِلُ أَنْ يَرَى أُفُقاً يُرَمِّمُهُ رَسولُ

بِرِسالَةٍ من لَفْظَتَيْنِ صَغيرَتَيْنِ: أَنا، وأنتِ
فَرَحٌ صَغيرٌ في سَريرٍ ضَيِّقٍ... فَرَحٌ ضَئيلُ
لَمْ يَقْتُلونا، بَعْدُ، يا ريتا، ويا ريتا.. ثَقيلُ
هذا الشِّتاءُ، وبارِدُ

... ريتا تُغنِّي وَحْدَها
لِبَريدِ غُرْبَتِها الشَّمالِيِّ البَعيد: تَرَكْتُ أُمّي وَحْدَها

قُرْبَ البُحَيْرَةِ وَحْدَها، تَبْكي طُفولَتِيَ البَعيدَةَ بَعْدَها
في كُلِّ أُمْسِيَةٍ تَنامُ على ضَفيرَتِيَ الصَّغيرةِ عندَها
أُمّي، كَسَرْتُ طُفولَتي وخَرَجْتُ إمْرَأَةً تُرَبِّي نَهْدَها
بِفَمِ الحَبيبِ. تَدورُ ريتا حَوْلَ ريتا وَحْدَها:
لا أَرْضَ للجسَدَيْنِ في جَسَدٍ، ولا مَنْفىً لمَنْفَى

في هذه الغُرَفِ الصَّغيرَةِ، والخُروجُ هو الدُّخولُ
عَبَثاً نُغَنِّي بينَ هاوِيَتَيْنِ، فَلْنَرْحَلْ. . . لِيَتَّضِحَ السَّبيلُ
لا أَسْتَطيعُ، ولا أنا، كانَتْ تَقولُ ولا تَقولُ
وتُهَدِّىءُ الأَفْراسَ في دَمِها: أَمِنْ أَرْضٍ بَعيدَةْ
تَأْتي السُّنونو، يا غَريبُ ويا حَبيبُ، إلى حَديقَتِكَ الوَحيدَةْ؟
خُذْني إلى أَرْضٍ بَعيدَة
خُذْني إلى الأَرْضِ البَعيدَةِ، أَجْهَشَتْ ريتا: طَويلُ
هذا الشِّتاءُ،
وكَسَّرَتْ خَزَفَ النَّهارِ على حَديدِ النَّافِذَة
وَضَعَتْ مُسَدَّسَها الصَّغيرَ على مُسَوَّدَةِ القَصيدَةْ
وَرَمَتْ جَوارِبَها على الكُرْسِيِّ، فَانْكَسَرَ الْهَديلُ
ومَضَتْ إلى المَجْهولِ حَافِيَةً، وأَدْرَكَني الرَّحيلُ

فرس للغريب

(إلى شاعرٍ عراقيّ)

أُعِدُّ، لأَرْثيكَ، عِشْرينَ عاماً من الحُبِّ. كُنْتَ
وَحيداً هناكَ تُؤَثِّثُ مَنْفَى لسَيِّدَةِ الزَّيْزَفُونِ، وبَيْتا
لِسَيِّدِنا في أَعالي الكَلامِ. تَكَلَّمْ لِنَصْعَدَ أَعْلى
وأَعْلى... على سُلَّمِ ٱلْبِئْرِ، يا صاحِبي، أَينَ أَنتَ؟
تَقَدَّمْ، لأَحْمِلَ عنكَ الكَلامَ... وأَرْثيك /

... لو كانَ جِسْراً عَبَرْناهُ. لكِنَّه الدّارُ والهاوِيَة
وللقَمَرِ البابِلِيِّ على شَجَرِ اللَّيلِ مَمْلَكَةٌ لَمْ تَعُدْ
لَنا، مُنْذُ عادَ التَّتارُ على خَيْلِنا. والتَّتارُ الجُدُدْ
يَجُرُّونَ أَسْماءَنا خَلْفَهُم في شِعابِ الجِبالِ، ويَنْسَوْنَنا
ويَنْسَوْنَ فينا نَخيلاً ونَهْرَيْنِ: يَنْسَوْنَ فينا العِراقْ

أما قُلْتَ لي في الطَّريقِ إلى الرِّيحِ : عمَّا قَليل
سَنَشْحَنُ تاريخَنا بالمَعاني، وتَنْطَفِىءُ الحَرْبُ عمَّا قَليل
وعمَّا قَليلٍ نُشَيِّدُ سُومَرَ، ثانِيَةً، في الأَغاني
ونَفْتَحُ بابَ المَسارحِ للنَّاسِ والطَّيْرِ من كِلِّ جِنْسِ ؟
وَنَرْجِعُ مِنْ حَيْثُ جاءَتْ بِنا آلرِّيح . . . /

. . . لم يَبْقَ في الأَرْضِ مُتَّسَعٌ لِلقَصيدَةِ، يا صاحِبي
فَهَلْ في القَصيدَةِ مُتَّسَعٌ، بَعْدُ، لِلأَرْضِ بَعْدَ آلْعِراق ؟
وَروما تُحاصِرُ أَمْطارَ عالَمِنا، وآلزُّنوجُ يَدُقُّونَ أَقْمارَها
نُحاساً عَلَى آلْجازِ. روما تُعيدُ آلزَّمانَ إلى آلْكَهْفِ. روما
تَهُبُّ على الأَرْضِ، فَآفْتَحْ لِمَنْفاكَ مَنْفى . . .

لَنا غُرَفٌ في حَدائِقِ آبَ، هُنا في البِلادِ آلَّتي
تُحِبُّ آلكِلابَ وَتَكْرَهُ شَعْبَكَ وآسْمَ آلْجَنوبِ. لَنا
بَقايا نِساءٍ طُرِدْنَ من الأَقْحُوانِ. لَنا أَصْدِقاءُ
من الغَجَرِ آلطَّيِّبينَ. لَنا دَرَجُ آلْبارِ. رامبو لنا. ولنا
رَصيفٌ مِنَ آلكَسْتَناءِ. لَنا تكنولوجيا لِقَتْلِ آلْعِراق

تَهُبُّ جَنُوبيّةً ريحُ مَوْتاكَ. تَسْأَلُني : هَلْ أَراك ؟
أَقولُ : تَراني مَساءً قَتيلاً على نَشْرَةِ الشَّاشَةِ ٱلْخامِسَة
فَما نَفْعُ حُرّيّتي يا تَماثيلَ رودانَ ؟ لا تَتَساءَلْ، ولا
تُعَلِّقْ على بَلَحِ ٱلنَّخْلِ ذاكِرَتي جَرَساً. قَدْ خَسِرْنا
مَنافِينَا مُنْذُ هَبَّتْ جَنوبِيّةً ريحُ مَوْتاك. . . /

. . . لا بُدَّ مِنْ فَرَسٍ لِلْغَريبِ لِيَتْبَعَ قَيْصَرَ، أَوْ
لِيَرْجِعَ مِنْ لَسْعَةِ ٱلنَّايِ. لَا بُدَّ مِنْ فَرَسٍ لِلغَريبْ
أَما كانَ في وُسْعِنا أَنْ نَرى قَمَراً وَاحِداً لا يَدُلُّ
على ٱمْرَأَةٍ ما ؟ أما كان في وُسْعِنا أَنْ
نُمَيِّزَ بَيْنَ ٱلبَصيرَةِ، يا صاحِبي، والبَصَرْ ؟

لَنا ما عَلَيْنا من ٱلنَّحْلِ وَٱلمُفْرَداتِ. خُلِقْنا لِنَكْتُبَ عَمّا
يُهَدِّدُنا مِنْ نِساءٍ وَقَيْصَرَ. . . والأَرْضِ حِيْنَ تَصيرُ لُغَةْ،
وَعَنْ سِرِّ جلجامشَ ٱلْمُسْتَحيلِ، لِنَهْرُبَ مِنْ عَصْرِنا
إِلى أَمْسِ خَمْرَتِنا الذَّهَبِيِّ ذَهَبْنا، وَسِرْنا إِلى عُمْرِ حِكْمَتِنا
وكانت أَغاني الحَنينِ عِرَاقِيّةً، وٱلعِراقُ نَخيلٌ ونَهْران. . . /

. . . لِي قَمَرٌ في الرَّصافَةِ. لي سَمَكٌ في ٱلفُراتِ ودِجْلَةْ
ولي قارِىءٌ في ٱلجَنُوبِ. ولي حَجَرُ الشَّمْسِ في نَيْنَوى
وَنَيْروزُ لِي في ضَفائِرِ كُرْدِيَّةٍ في شَمالِ ٱلشَّجَنْ
ولي وَرْدَةٌ في حَدائِقِ بابِلَ. لي شاعِرٌ في بُوَيْب
ولي جُثَّتي تَحْتَ شَمْسِ ٱلعِراق

على صورَتي خَنْجَري. وعلى خَنْجري صورَتي. كُلَّما
بَعُدْنا عَنِ النَّهْرِ مَرَّ ٱلْمَغولِيُّ، يا صاحِبي، بَيْنَنا
كَأَنَّ ٱلقَصائِدَ غَيْمُ الأساطيرِ. لا ٱلشَّرْقُ شَرْقٌ
ولا ٱلغَربُ غَرْبٌ. تَوَحَّدَ إِخْوَتُنا فِي غَريزَةِ قابيلَ. لا
تُعاتِبْ أَخاكَ، فإِنَّ ٱلْبَنَفْسَجَ شاهِدَةُ ٱلْقَبر. . . /

. . . قَبْرٌ لِباريسَ، لُنْدنَ، روما، نيويورك، موسكو، وقبر
لِبَغْدادَ، هَلْ كانَ من حَقِّها أَن تُصَدِّقَ ماضِيَها ٱلْمُرْتَقَبْ ؟
وَقَبْرٌ لإِيتاكَةِ ٱلدَّرْبِ وَٱلْهَدَفِ ٱلصَّعْبِ، قَبْرٌ لِيافا. . .
وَقَبْرٌ لِهوميرَ أَيْضاً وَلِلْبُحْتُرِيِّ، وقبرٌ هو ٱلشِّعْرُ، قبرٌ
من الرِّيحِ . . . يا حَجَرَ ٱلرُّوحِ ، يا صَمْتَنا !

نُصَدِّقُ، كَي نُكْمِلَ آلتّيهَ، أنَّ الخَريفَ تَغَيَّرَ فينا
نَعَمْ، نَحْنُ أَوْراقُ هذا آلصَّنَوْبَرِ، نَحْنُ آلتَّعَب
وقَدْ خَفَّ، خارِجَ أجسادِنا، كالنَّدى. . . وَآنْسَكَب
نَوارِسَ بيضاءَ تبحثُ عن شُعَراءِ آلْهَواجِس فينا
وعَنْ دَمْعَةِ آلْعَرَبِيِّ الأَخيرةِ، صَحْراء. . . صَحْراء /

. . . لَمْ يَبْقَ فِي صَوْتِنا طائِرٌ واحِدٌ لِلرَّحيلِ إلى
سَمَرْقَنْدَ أو غَيرِها، فآلزَّمانُ تَكَسَّرَ وآللُّغَةُ آنْكَسَرَتْ
وهذا آلهَواءُ آلَّذي قد حَمَلْناهُ يَوْماً على كَتِفَيْنا
عَناقيدَ مِن عِنَبٍ مُوصِلِيٍّ، يُطِلُّ صَليباً عَلينا
فمَنْ يَحْمِلُ آلآنَ عِبْءَ آلْقَصيدَةِ عَنّا ؟

ولا صَوْتَ يَصْعَدُ، لا صَوْتَ يَهْبِطُ، بَعْدَ قَليل
سَنُفْرِغُ آخِرَ أَلْفاظِنا في مَديحِ آلمَكانِ، وَبَعْدَ قليل
سَنَرْنو إلى غَدِنا، خَلْفَنا، في حَريرِ آلكَلامِ آلقَديم
وسَوْفَ نُشاهِدُ أحْلامَنا في آلْمَمَرَّاتِ تَبْحَثُ عَنّا
وعَنْ نَسْرِ أَعْلامِنا آلسُّود. . . /

صَحْراءُ للصَّوْتِ، صَحْراءُ لِلصَّمْتِ، صحراءُ لِلْعَبَثِ ٱلأَبَدِيّ
لِلَوْحِ ٱلشَّرائِعِ صَحْراءُ، للكُتُبِ المَدْرَسِيَّةِ، للأَنبِياءِ وللعُلَماءْ
لشيكسبيرَ صَحْراءُ، للباحِثينَ عنِ اللّهِ في الكائنِ الآدَمِيّ
هُنا يَكْتُبُ ٱلعَرَبِيُّ الأَخيرُ: أنا العَرَبِيُّ ٱلّذي لَمْ يَكُنْ
أَنا العَرَبِيُّ ٱلَّذي لَمْ يَكُنْ

قُلِ الآنَ إنَّكَ أَخْطَأْتَ، أَو لا تَقُلْ
فَلَنْ يَسْمَعَ ٱلمَيِّتونَ ٱعْتِذارَكَ منهم، ولَنْ يَقْرَؤوا
مَجَلّاتِ قاتِلِهِمْ كَيْ يَرَوْا ما يَرَوْنَ، ولن يَرْجِعوا
إلى ٱلْبَصْرةِ ٱلأَبَدِيَّةِ كَيْ يَعْرِفوا ما صَنَعْت
بأُمِّكَ، حِينَ ٱنْتَبَهْتَ إلى زُرْقَةِ ٱلْبَحْر. . . /

. . . قُلْ إِنَّنا لَمْ نُسافِرْ لِنَرْجِعَ . . . أَوْ لا تَقُلْ
فإنَّ ٱلكلامَ ٱلنِّهائِيَّ قيلَ لأُمِّكَ، بٱسْمِك :
أَعِنْدَكِ ما يُثْبِتُ ٱلآنَ أَنَّكِ أُمِّي الوَحيدَة ؟
وَإن كانَ لا بُدَّ من عَصْرِنا، فَلْيَكُنْ مَقْبَرَةْ
كَما هُوَ، لا مِثْلَما تَتَجَلّى سُدُومُ الجَديدَة

وَلَنْ يَغْفِرَ ٱلمَيِّتونَ لِمَنْ وَقَفوا، مِثْلَنا، حائِرين
على حافَةِ ٱلْبِئْر: هَلْ يُوسُفُ السُّومَرِيُّ أَخُونا
أَخُونا ٱلْجَميلُ، لنَخْطَفَ مِنْهُ كَواكِبَ هذا المساءِ ٱلْجَميل ؟
وإن كانَ لا بُدَّ من قَتْلِهِ، فَلْيَكُنْ قَيْصَرُ
هُوَ ٱلشَّمْسُ فَوْقَ ٱلْعِراقِ ٱلْقَتيل !

سَأُولَدُ مِنْكَ وَتُولَدُ مِنّي . رُوَيْداً رُوَيْداً سَأَخْلَعُ عَنْك
أصابِعَ مَوْتايَ، أَزْرارَ قُمْصانِهِمْ، وبِطاقاتِ ميلادِهِمْ
وتخلعُ عنّي رَسائلَ مَوْتاكَ لِلْقُدْسِ ، ثُمَّ نُنَظِّفُ نظَّارَتَيْنا
من ٱلدَّمِ ، يا صاحِبي، كَيْ نُعيدَ قِراءَةَ كافْكا
ونَفْتَحَ نافِذَتَيْنِ على شارِعِ ٱلظِّلّ . . . /

. . . في داخِلي خارِجي . لا تُصَدِّقْ دُخانَ ٱلشِّتاءِ كثيراً
فعمّا قليلٍ سَيَخْرُجُ إبْريلُ مِن نَوْمِنا . خارِجي داخِلي
فلا تَكْتَرِثْ بِٱلتَّماثيلِ . . . سَوْفَ تُطَرِّزُ بِنْتٌ عِراقِيَّةٌ ثَوْبَها
بأَوَّلِ زَهْرَةِ لَوْزٍ، وتَكْتُبُ أَوَّلَ حَرْفٍ من ٱسْمِك
على طَرَفِ ٱلسَّهْمِ فَوْقَ ٱسْمِها . . .

في مَهَبِّ ٱلْعِراق

فهرست

أَحَدَ عَشَرَ كوكباً على آخِرِ المشهدِ الأنْدلسيّ ٥
في المساء الأخير على هذه الأرض ٧
كيفَ أَكْتُبُ فوقَ السّحاب؟ ٩
لي خَلْفَ السّماء سماء ١١
أنا واحد من ملوكِ النهاية ١٣
ذات يوم، سأجلس فوق الرّصيف ١٥
للحقيقةِ وجهان والثّلجُ أسود ١٧
مَنْ أنا... بعدَ ليلِ الغريبة؟ ١٩
كُنْ لجيتارتي وتراً أيّها الماء ٢١
في الرّحيلِ الكبيرِ أحبُّكِ أكثر ٢٣
لا أُريد من الحُبّ غيرَ البداية ٢٥
الكَمَنْجات ٢٧
خطبةُ «الهنديّ الأحمر» ـ ما قبل الأخيرة ـ أمامَ الرّجل الأبيض ٢٩
حجرٍ كنعانيٍّ في البحرِ الميّت ٤٧
سنختارُ سوفوكليس ٥٧
شتاءُ ريتا ٦٩
فرسٌ للغريب ٨١

صمم الغلاف : الفنان نبيل قدوح